لَذَّة النَّحو

جماليّات النَّحو والتَّفسير



الدكتور: عبيدة خليل الشبلي



ريمار للنشر

لذة النحو

جماليات النحو والتفسير

عنوان الكتاب	لذة النحو جماليات النحو والتفسير
بالإنجليزية	The pleasure the aesthetics of syntax and interpretation
الترقيم الدولي	978-625-99934-6-1
المؤلف	**الدكتور عبيدة خليل الشبلي** Dr. Öğr. üyesi Obayda ALSHIBLY
تاريخ النشر	2023م
اسم الدار	**دار أكاديمية ريمار للنشر**
عنوان دار النشر	الفاتح - إسطنبول- تركيا

الطبعة الأولى

2023



لذّة النحو

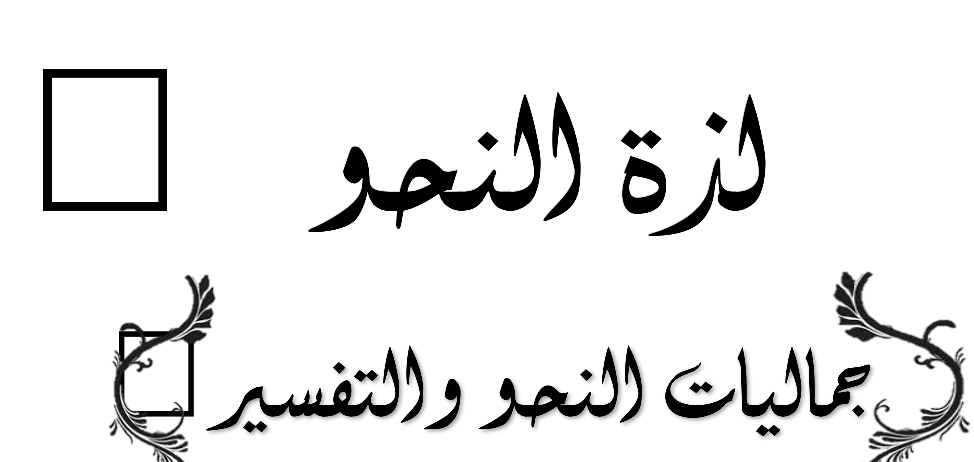
جماليات النحو والتفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

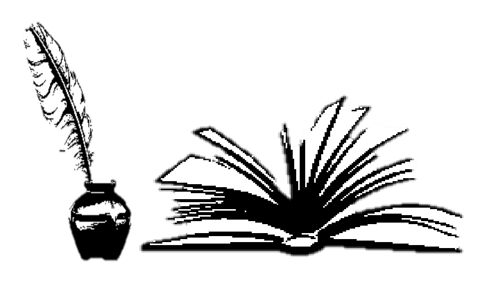
(الإسراء 85)





لزة النحو

جماليات النحو والتفسير



الدكتور: عبيدة خليل الشبلي

مقدمة

إن قضية الجمالية النحوية والتفسير القرآني تتأسس برأينا من خلال العلاقة العريقة والقديمة بين النحو ومنطق الفلسفة اللغوية؛ إذ إن العلاقة بينهما قديمة جداً تعود جذورها إلى القضايا الاستقرائية والاستنباطية في الفكر اليوناني، وإن كان النحاة هم الأقدم زمنياً قبل أرسطو وصياغته لقانون المنطق المعلومة

الأسلوب القرآني ولذة النحو من القضايا المهمة التي شغلت فكرنا، وأخذت حيزاً كبيراً من مدارك وتيارات الدرس النحوي في تراثنا، وكان الهدف الأول من هذه الاجتهادات والدراسات الوقوف على مظاهر التماسك النصي للآيات القرآنية بوساطة النحو وفنونه وفروعه، وطريقنا في ذلك الانطلاق من المباني والتراكيب والسياقات للوصول إلى المعاني والدلالات، فالقرآن الكريم اختار الألفاظ العميقة الدلالة في المواضع المناسبة له وحاشا أن يكون ترتيبه على نمط اعتباطي دون حساب لسحر البيان والألفاظ وفعلها التأثيري في

السامع والمتلقي والقارئ، كذلك يكون الولوج إلى الأسلوب ولذة النحو وجماليات تفسير المعاني ودلالات السياق من خلال الأساليب العديدة أو المتدرجة والتي تبدأ بالأسلوب اللفظي، ثم تنتقل إلى الأسلوب التركيبي، ثم الأسلوب البياني.

يحتوي الكتاب على فصلين تناول الأول فيهما جماليات النحو والتفسير القرآني من خلال جماليات النحو والتفسير، وجماليات النحو والإعجاز القرآني، وجماليات النحو وتفسير الآيات، وجماليات النحو والأسلوب القرآني، وأما الفصل الثاني فقد تناول الكتاب فيه جماليات النحو والأبواب النحوية بين المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، وكذلك تناول في قسمه الأخير جماليات النحو والجمل. وأسأل الله الهدى والصواب والقبول فيما ألفت وله الحمد جل جلاله.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل

المؤلف

الدكتور عبيدة الشبلي

صيف 2023/8/12م

الفصل الأول: جماليات النحو وتفسير القرآن الكريم

لاريب أن هناك صلات وثيقة بين تفسير القرآن الكريم وعلم النحو؛ إذ إن المعنى يختفي وراء السياق النحوي ولا يظهر إلا من خلال النحو (الإعراب) فالإعراب ليس الإبانة عن المعاني فقط، بل هو الجمالية التي تظهر المعاني من خلال أدوات فهم النص القرآني وتفسير معانيه عبر الوسائل والأدوات التي تتوسل بعلم النحو وفلسفته اللغوية ومنطق اللغة وقوانينها فيه.

تتشكل جمالية النحو بالأسلوب واللغة من خلال عدد من الوسائل، هذه الوسائل هي التي تعطي النص والسياق القرآني تلك الجمالية التي تنبعث عن دلالات وآيات وقف عليها العلماء من خلال الإعراب، فعرفوا مواطن البناء والإعراب فيها واستنبطوا من خلال مفاتيح الإعراب مواقع الجمال في النص القرآني، فليس للتفسير القرآني غنى عن النحو وفوائده الجليلة التي لا تنضب ومنابعة التي تسقي كل من قصدها ليشرب من معينها ويستشف جمالية النص القرآني المبارك من خلالها

فطريقه إلى ذلك النحو واللغة. يقول الجرجاني: "فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزيةٍ وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه". [1]

لقد عرف علماء العربية (علماء التفسير) أهمية النحو في بيان سحر القرآن ومنابع فصاحته وجلال أسلوبه منذ العهد الأول لتفسيرهم للقرآن الكريم، فلو طالعت التفاسير السابقة لكبار علماء التفسير من المشهورين لوجدت أنها لا تخلو من الإعراب ودلالاته في فهم النص القرآني، بل إن بعضهم راح إلى الأخذ بها في جل مواضع تفسيره، وصبغه بصبغة علم النحو وجماليات السياق القرآني من خلاله، فتفرد تفسيره وأطلق عليه السمة اللغوية أو ما يطلق عليه بالتفسير اللغوي كما في جامع البيان لأحكام القرآن للقرطبي، والبحر المحيط لأبي

1 عبد القاهر، الجرجاني، دلائل الإعجاز، 81- 83.

حيان الأندلسي، وغيرها من التفاسير التي لا يسع المقام الحديث عنها جميعاً.

أولاً: جمالية النحو وعلم التفسير

إن العلاقة بين النحو والتفسير هي علاقة غارقة في القدم؛ تمتد جذورها إلى نشأة النحو العربي ومن أهم أسبابه كما نعلم قضايا اللحن التي استشرت بين الناس ولاسيما في قراءة النص القرآني كما تذكر كتب التراث النحوي، فجمالية النحو تظهر لنا من خلال تأصيل تلك العلاقة بين فهم النص القرآني والمحافظة عليه بأدوات النحو وفلسفة منطقه اللغوية، فالأقوال التي تؤكد جمالية النحو والتفسير كثيرة نذكر منها قول ثعلب: "سمعت محمد بن سلام يقول: ما أحدث الناس مروءة أفضل من طلب النحو. وقول عبد الله بن المبارك: اللحن في الكلام أقبح من آثار الجدري في الوجه. وقول عبد الملك: اللحن هجنة بالشريف. وقول ابن شبرمة: إذا سرك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً، ويصغر في عينك من

كان فيها كبيراً؛ فتعلم العربية، فإنها تجريك وتدنيك من السلطان".[1]

فجمالة النحو وعلم التفسير تتحقق عند من أتقن أبواب النحو وفهم النص القرآني بمقتضى الدلالات والمعايير النحوية، والنحو وسيلته للولوج إلى النص القرآني المبارك، وكان على النقيض ممن لم يعمل به وعجز عن فهم جمالية علاقته بعلم التفسير، يقول الجرجاني واصفاً من قصّر في هذا الباب مدللاً على عمق العلاقة بين النحو والتفسير: "وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صداً عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه؛ ذاك لأنهم لا يجدون بدًّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذا كان قد علم أن الألفاظ معلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج

1 انظر: ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، تح: محمد الخولي، 8 وما بعدها.

لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه".[1]

فالنحو هو الذائقة والجمالية والملكة وهو الفعل الخاضع للتكرار إلى المحاولات العديدة والتي ينبني عليها الفعل الجمالي لفهم النص والعلاقة بعلم التفسير، فليس من المنطق أن يأتي النحو بكل وجوهه ودلالته من المحاولة الأولى، فالفلسفة الجمالية لأي فن –والنحو فن لغوي– تحتم عليه الإحاطة والمحاولة الدائمة لحسن التأويل وبراعة التفسير، كما جاء في المقدمة:" والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته، وعلى نسبة الأصل تكون، ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم".[2]

إنّ جماليّة التلقي بين النحو وعلم التفسير تكشف عن القوة في الشخصية النقدية والذائقة العالية لما هو جميل في النص القرآني الجليل من خلال علم النحو، فليس الجميل هو

---

1 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 13.

2 ابن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية بالقاهرة، د. ت، 400.

المعرفة بعلم النحو وتفاصيله فقط، بل الجميل هو ما يحدثه الفعل النحوي في تلقينا للنص القرآني؛ إذ إن النص "لا يمكن أن يكون جميلاً لأنه يمنحنا بعض البهجة؛ لأن هذا يعني أن كل ما هو نفعي أو غائي سيكون جميلاً، ولكن ما يمنحنا البهجة دون أن يكون في حدّ ذاته نفعاً هو ما يمكن أن نسميه بالجميل، وهذا يعني أن الجميل هو اللانفعي الذي لا غاية له، حتى لو كانت تلك الغاية هي إشاعة البهجة في نفوسنا؛ لأن مجرد وجود شبهة غائية ينفي جمالية النّص الإبداعي، وهذا يعني أن على النص الإبداعي أن يشيع البهجة في نفوسنا دون أن يتعمد ذلك".[1] فالتفسير القرآني هو منبع للنصوص الجمالية؛ لأنه يقترن بالأسلوب الإعجازي الذي لا مثيل له، وكذلك يفعل الإعجاز القرآني فينا مالا تفعله كل النصوص البشرية الإبداعية مجتمعة بلا شك.

لعل الرؤيا الجمالية تنطلق من الإحساس العميق لدى النحاة لفهم النص القرآني عبر تفسيره بأعلى المستويات

---

1 عابد خزندار، الإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام: 1988م، 16.

الدرسية، فعلم النحو هو علم جمالي ذوقي وهو فن لا تظهر قيمته الجمالية إلا بإتقان مناحيه وجوانبه ومضامينه؛ "فإنّ قيمة الفن الجمالي للنحو لا تعرف إلا بوساطة تجربة شخصية مباشرة؛ أي فهم السياق القرآني نحوياً، فلو شئت أن تعرف طبيعة النص من الناحية الجمالية والفنية، وتفهم معنى تذوقه والاستمتاع به، فكل ما عليك هو أن تمر بالتجربة المباشرة (الفهم النحوي الواعي والعميق للنص القرآني) أما إذا حاولت أن تفعل ذلك بالتفكير فقط بالكلام عن الجمالية دون الإحساس والتذوق لمعانيها، فإن مآلك حتما– كما تؤكد علاقة التلقي بين النحو وعلم التفسير– إلى الإخفاق. [1]

ولأهمية علم النحو في تفسير معاني القرآن نلحظ تأكيد المفسرين على جماليته؛ ففيه الوسيلة للوصول إلى غاية التأويل والتفسير؛ إذ يذكر ابن عطية في حق الإعراب "إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع. كما يربطه بتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً

---

1 انظر: جيروم، ستولينتر، النقد الفني دراسة جمالية، ترجمة: فؤاد زكريا، 30.

كَثِيراً﴾ [1] قال بعضهم فيها: هي الفهم في القرآن، وقال قتادة: (الحكمة) هي القرآن والفقه له، وقال غيره: (الحكمة) هي تفسير القرآن، ولا سيما إذا كانت أدواتنا في ذلك الإعراب والنحو. [2]

وكذلك تظهر جمالية النحو ولذة معانيه في تماسك نصوصه وعباراته والتصاق معانيه بالإعراب؛ ذلك العلم الجليل الذي حظّ عليه كبار الصحابة رضوان الله عليهم، فقد ذكر أن عمر بن الخطاب وأبا بكر الصديق قالا في الإعراب: "لحفظ بعض إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه". [3]

وليس ثمة شك في أن منابع الجمالية في النحو وعلاقته بعلم التفسير تظهر من خلال صلته بعلوم القرآن وخدمته لفهم نصه ومعانيه، فليس العلم علماً حتى يخضع لسلطة علم

---

1 سورة البقرة، الآية 2689.

2 انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، تح: عبد السلام محمد، 40/1.

3 انظر: عبد الواحد المقرئ، أخبار النحويين، تح: مجدي السيد، 42.

التفسير ويكون واحداً من جنوده خدمة لكتاب الله، يقول الرافعي في هذه المعاني مؤكداً الحقيقة الجمالية بين النحو والتفسير: "غير أننا نوثق الكلمة في أن القرآن الكريم هو كان سبب العلوم الإسلامية ومرجعها كلها بأنه ما من علم إلا وقد نظر أهله في القرآن وأخذوا منه مادة علمهم أو مادة الحياة له، فقد كانت سطوة الناس في الأجيال الأولى من العامة وأشباه العامة شديدة على أهل العلوم النظرية، إلا أن يجعلوا بينها وبين القرآن نسبا من التأويل والاستشهاد والنظر، أو يبتغوا بها مقصدا من مقاصده". [1]

لقد فهم النحاة ما ذكرنا من صميم تلك العلاقة الجمالية بين النحو وعلم التفسير فها هو ابن جني يدرك هذه الجمالية والعلاقة القوية للنحو بعلم التفسير، وقد وضع في خصائصه عدداً من النقاط التي تؤطر هذه العلاقة الجمالية وتقودها إلى الانسجام والاتساق وحسن التأويل، داعياً إلى عدم الخوض

1 مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، لبنان، د. ت، /82.

والاسترسال في تفسير المعاني عند عدم القدرة على الإحاطة الجمالية والمعنوية بالمباني والمعاني، وهي تحت قسم عنونه وأطلق عليه (بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى) يقول: "فإذا مر بك شيء من هذا عن أصحابنا فاحفظ نفسك منه ولا تسترسل إليه، فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى فهو ما لا غاية وراءه وإن كان تقدير الإعراب مخالفًا لتفسير المعنى تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه، صححت طريق تقدير الإعراب حتى لا يشذ شيء منها عليك وإياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر إصلاحه". [1]

وفصل الخطاب في هذا القسم أن جمالية النحو وعلم التفسير جاءت في تراث النحاة في كثير من المواضع والمواقف والأقوال والآراء، وأن كثيراً من هذه الجماليات أكدت عمق العلاقة بين النحو وخدمته لمعاني النص القرآن بقدراته الجمالية وذائقته وملكاته وبين علم التفسير الذي يترجم روح تلك الجمالية كونه أعطى علم النحو الفرصة ليثبت تلك الجماليات

---

1 ابن جني، الخصائص، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1/284-285.

ويفسح المجال أمامه للمجيء بالجديد المفيد المشوق النافع المغذي للعقول والقلوب، فالنص القرآني عبر تلك العلاقة هو منابع نورانية أطلقها فكانت جمالاً فوق جمال ونوراً على نور.



ثانياً: جمالية النحو والإعجاز القرآني

قضية الإعجاز القرآني من أعظم القضايا التي شغلت الفكر والعقل والفلسفة والأسلوب والمنطق وعلم جمال الأسلوب وغيره من كماليات الدلائل التي كشفت القناع عن سر الإعجاز وجماليات النحو في تحليله للنص القرآني المعجز.

لقد فرَّغ علم النحو طاقاته وجميع الاستنتاجات والتأويلات والدلالات لديه لخدمة قضية الإعجاز القرآني وبيان مواطن الجمال فيه؛ لذلك جاءت عباراته على أنصع وأرقى الأوصاف في تفسير ظواهر ومواضع الجمال الأسلوبي المعجز في كتاب الله العزيز، وأخذ ينطلق به من سلطه النص البنائية إلى منابع ومساقات جمالية ترتقي بعلم النحو إلى مستويات عالية من التحليلات الجمالية التي لا نظير لها.

إن حقيقة الإعجاز القرآني تظهر عبر بوابات النحو من خلال أسلوب القرآن؛ ذلك الأسلوب الإعجازي الي لا نلحظ فيه تنافراً للحروف مع كمال التآلف بين ألفاظه وسياقاته، كما

أنه قائم على موافقة الكلام لمقتضى الحال، والإيجاز المذهل المدهش دون التقصير بحق الوصف والذكر، والبيان والفصاحة واختيار أفصح الكلمات لأكثر العبارات بلاغة ورونقاً وجمالاً، والنظم البديع الذي خالف نظم البشر ونتاجهم الأدبي مهما بلغت منزلته، وما ينطوي عليه من إخبار عن المغيبات، والاكتشافات الأثرية المؤيدة للقصص الغابرة عن الأقدمين، وغير ذلك من الأدلة الجمالية في الإعجاز القرآني التي دفعت الباقلاني إلى القول: "معلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله. وأنى لهم ذلك وأمر معاناة المعاني التي تحملها الألفاظ، شديد بالغ الشدة؛ لأنها نتائج العقول، وولائد الأفهام، وبنات الأفكار". [1]

---

1 أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ط5، دار المعارف، مصر، عام: 1997م، 16.

حقيقةً، إن عمق الدلالة الجمالية في النص القرآني المعجز دفعت الجرجاني إلى نسبة الإعجاز وجماليات النحو في توخي المعاني الواردة في نصوصه بكونها عائدة إلى النظم، فالنظم لديه كما نعلم هو سر الفصاحة ومنبع القراءة النحوية الجمالية للسياق القرآني، فمن يذهب برأيه إلى أن مصدر الجماليات وإعجازها فيه يعود إلى المفردة أو معاني الكلم المفردة، أو المقاطع والفواصل... بأنها هي مصدر الإعجاز القرآني في دراستنا له نحوياً فهو واهم، فليس الإعجاز القرآني وجماليات النحو المرسلة إليه إلا عن طريق النظم فقط، فهو الأساس والتأسيس لذلك.[1]

يذهب الرافعي إلى أن قضية الإعجاز القرآني لا تقف على جانب جماليات النحو ودوره في إبراز تلك الجماليات بتوضيحه للإعراب والمعاني، بل الإعجاز عنده هو الإعجاز المطلق كما لو أنه الكون الفسيح الجديد المتجدد، يقول: "وما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه، وإعجاز تركيبه بصورة

1 انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 385 وما بعدها.

كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهة، وتعاوروه من كل ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا. ثم هو بعد لا يزال عندهم على ذلك خلقاً جديداً، ومراماً بعيداً، وصعباً شديداً، وإنما بلغوا منه إذ بلغوا منه نزراً تهيأت لضعفه أسبابه، وبقي ما وراء ذلك من الأمر المتعذر الذي وقفت عنده الأعذار؛ والابتغاء المعجز الذي انحط عنده قدر الإنسان؛ لأنه مما سمحت به الأقدار". [1]

لعلَّ منابع الجمال بين النحو وإعجاز القرآن الكريم تدور في فلك الفعل العلاماتي بالأدوات النحوية؛ إذ النحو هو الذي يفعل فعله في السياق القرآني يصبغه بصبغة جمالية من خلال إعادة ترتيبه للمعاني وفق المنطق الإعرابي واستنطاق النص للإفصاح عما فيه من الدلالات الجمالية والإعجازية؛ إذ ليس "مجرد كون شيء ما مدوناً هو الأمر الحاسم، ولعلّ هذا يقود بنا إلى التّصديق يقيناً أن كل صور الكتابة ينبغي أن تستنطق، إلا أن الوظيفة المعتادة للكتابة تكمن في أنها تحيلنا إلى فعل

---

1 مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، 93/2.

أصلي ما من أفعال القول، حتى إن النص بهذا المعنى لا يدعي أنه يتحدث بفضل قدرته الخاصة".[1] فالنحو هو وسيلتنا الجمالية لاستنطاق الألفاظ والإبحار بمعانيها من الناحية الجمالية وفي كل قراءة جديدة تسعى إلى فهم المقاصد وتحيل إلى الأسرار الجمالية من خلال الإعجاز.

وإذا كان العقل هو الآلة الإدراكية لدينا للوصول إلى مكامن الإعجاز في النص القرآني، فإن النحو هو وسيلتنا لذلك عن طريق الإحاطة الكاملة بين الألفاظ والمعاني، فالمعاني الجميلة لا تظهر لنا بالعفوية والمباشرة، بل لابد من النحو ووسائله للوصول إليها في منابعها، فلو تأملت اللوحة الوصفية الجمالية لقوله تعالى في وصف حدائق سبأ: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾[2] لوجدت أن التعبير القرآني بالأسلوبي الجمالي النحوي يجوب في آفاق الوصف

1 انظر: جادامر، هانزجيورج، تجلي الجميل، ترجمة: سعيد توفيق،285.

2 سورة سبأ، الآية: 15.

والأسلوب الإخباري الماضي (لقد كان) ثم إن العلاماتية الجمالية تتوضح من خلال لفظ (آية) ففيه جمالية الوصف واختصار الإعجاز وتكثيف العبارة، فلولا النحو وعلم الإعراب لم نصل في أي نص من النصوص والسياقات القرآنية الجليلة إلى الاستنباط عن المعاني الجمالية ولم نكن قادرين إلى الحديث عنها وعن فعلها التأثيري والتأصيلي فينا عندما نتلقى النص القرآني بكونه منبعاً من منابع الإعجاز الجمالي.

لقد كان علم الجمال من العلوم القديمة في الحياة والثقافة العربية؛ إذ نجد له جذوراً تعود به إلى ما قبل الإسلام، فلقد كان الإنسان في تلك المرحلة يتذوق الجمال عبر أدوات البسيط والعفوية ولم يكن النحو هو وسيلته لذلك كما نعلم، "فالإنسان في طبيعته كائن جمالي بدأت مراحل تذوقه الأولى للشيء الجميل عبر بوابة الحس، ثم انتقل بعد نزول النص القرآني إلى جانب الوعي الجمالي، فليس القرآن الكريم مصدراً من مصار العلوم الإسلامية والفقه والتفسير والحديث والأحكام وغير ذلك من علوم الإسلام، بل هو كذلك مصدر من مصادر

الجمال اللغوي ودليل من دلائل الإعجاز البلاغي الذي يأتي النحو فيه ليخرج ما فيه جماليات إلى النور فيتحصل به للتلقي الفرح والسرور وتتأصل عظمة كلام الله بين القلوب والسطور، واللفظ والمعنى.[1]

وإن كنا نناقش موضوع النحو ودلالاته الجمالية في دراسته للتفسير؛ فإننا نرى أن النحو هو المرآة التي تعكس الجمال الأسلوبي والإعجازي للنص القرآني عبر صيغه وتراكيبه ومعانيه ونتاجاته المتنوعة التي تتنوع لارتباطها بالأسلوب والسياق وتوظيف الدلالة النحوية للإعجاز الجمالي فيه؛ إذ إن "الأسلوب القرآني يتميز بتنويع في الصيغ والمفاهيم الجمالية بشكل يخدم السياق الذي ينتظمها، وينسجم مع الإطار العام الذي يؤطرها، ومن ثمَّةَ فإن التعبير القرآني لا يبقى سجينا للفظة (الجمال) في توصيفه للمواضيع والقيم والصور الجمالية، بل يوظف ألفاظا أخرى تؤدي الأغراض المرادة منها. وإن تقليب النظر في آي الذكر الحكيم يقودنا إلى انتخاب

---

1 انظر: أحمد الحسون، في تاريخ الفكر الجمالي، بحث، 2012م، 222-223.

مجموعة من المفاهيم، هي في نظرنا الأكثر بروزاً في المنظومة الجمالية للقرآن الكريم".[1]

حقيقةً، نحن نتلمس مواطن الجمال والإعجاز القرآني بذوقنا النحوي، وليس بالصورة المجردة للفظ ودلالاته، فالنظرة الجمالية الأولى لا تفصح عن المعاني وما تتضمنه من صور جمالية إعجازية، كما أن الوقوف على المعنى السطحي دون التحليل النحوي لا يفصح عنها أيضاً، لذلك لابد من المزاوجة بينهما في دراستنا النحوية للسياق القرآني، ولننظر للصور الجمالية الإعجازية التي يستنبطها علم النحو وتحليله في قوله تعالى: ﴿**مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ**﴾[2] يقول القرطبي في معناها: "ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين، بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها، وإن اختلفت صوره وصفاته". وذكر فيها قول الشاعر: [3]

---

1 عبد العظيم صغيري، علم الجمال رؤية في التأسيس القرآني، 32.

2 سورة الملك، الآية: 3-4.

3 انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: محمد البردوني، 209/18.

بَنَى لَكُمْ بِلَا عَمَدٍ سَمَاءً ... وَزَيَّنَهَا فَمَا فِيهَا فُطُورُ

فالدلالات النحوية للفعل المضارع المنفي (ما ترى) ليست لوقت النظر والالتفات والتفكر في خلق الله فقط، بل هي الدلالة الاستمرارية للمعنى الآن وفي المستقبل، فالفطور والقصور منفي وغير متحقق في جنب الله إلى آخر الزمان، فالإدراك للنحو هو إدراك وتحليل للمعاني، وبها ندرك قيمة النحو ودوره في تشكيل معاني الجمال وجلال السياق الإلهي المعجز. ولا محالة أن النحو هو الجمال بفلسفته وهو المصدر الجمالي لإثبات الإعجاز الإلهي البديع.

وحري بنا أن نبرهن على العلاقة الجمالية بين علم النحو والنص القرآني المعجر من خلال ذكرنا لأمثلة تظهر روائع الإبداع البياني الإلهي، نختار منها قوله تعالى: ﴿**وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ**﴾ [1] فالوقوف على أسلوب العطف في هذه الآية يقود إلى مظاهر الإعجاز الجمالية فيها، فقد جاءت كلمة

---

1 سورة المائدة، الآية: 6.

(وَأَرْجُلَكُمْ) منصوبة والأصل أن تكون تابعة بالحركة لما عطفت عليه وهي كلمة (بِرُءُوسِكُمْ) أي مجرورة بكونها تتبع ما قبلها وما عطفت عليه، ولكن السر النحوي في نصبها هو العطف على السابق في أسلوب قرآني تفرد بإعجازه؛ أي على الغسل ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [1] فالنحو والإعراب في هذه الآية هما الطريق الأمثل للمعنى الإعجازي في سياق النص القرآني والكشف عن معانيه. يؤكد السيوطي أن النحو هو أصل المعاني وقلب الدلالة الجمالية ولأهميته في العصور الاولى فقد كانوا" يعرفون بالطبع وجوه بلاغته كما كانوا يعرفون وجوه إعرابه، ولم يحتاجوا إلى بيان النوعين في ذلك العصر؛ لأنه لم يكن يجهلهما أحد من أصحابه، فلما ذهب أرباب السليقة والتبس الإعراب باللحن، والمجاز بالحقيقة وضع لكل من الإعراب والبلاغة قواعد يدرك بها ما أدركه الأولون بالطبع وتساعد، فكان حكم علم المعاني والبيان كحكم علم النحو

1 سورة المائدة، الآية: 6.

والإعراب، وكانت الحاجة إليهما داعية لإدراك وجه الإعجاز والإعراب". [1]

وبشكل مختصر، يمكننا القول: إن الدلالات الإعجازية في السياق القرآني لا تظهر إلى ساحة التلقي للآيات سواء أكانت عبر قناة القراءة أو السماع أو النقل عن الغير أو غير ذلك من قنوات النقل للرسالة النصية المباركة (الآيات) إلا عبر بوابة النحو ووسائل تحليله وتعبيراته وأسرار تأويلاته للمعاني، فالسياقات مغلقة حتى يأتي النحو ويفتح معانيها ويوردها بالأسلوب الإقناعي الجمالي البديعي الرائع.



1 جلال الدين السيوطي، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، 9/1.

ثالثاً: جمالية النحو وتفسير الآيات

ندرس بعون الله تعالى في هذا القسم دور النحو في تفسير الآيات القرآنية جمالياً، وسنقف فيه على مواطن لسياقات قرآنية مختلفة، ألا وهي **القراءات القرآنية**، فالقراءات القرآنية من أجمل المواطن السياقية التي تحقق وتعبر عن التنوع الدلالي للتفسير والدلالات النحوية من الناحية الجمالية.

لابد لنا قبل الخوض في الحديث عن العلاقة بين النحو والقراءات القرآنية من البحث عن الوسائط والوسائل التي تبرهن مدى قدرة النحو على تفسير القراءات بتعددها من الجانب الجمالي، فهل كان النحو هو الأداة المثلى للوصل إلى جماليات القراءات القرآنية وتفسيرها جمالياً عبر النحو وطرائقه.

ولعلنا نبدأ بأن نذكر القراءات القرآنية من حيث اللغة والاصطلاح، فهي من الناحية اللغوية: مصدر الفعل (قرأ– يقرأ– قراءة) بمعنى تلا، واسم الفاعل منها: القارئ؛ أي: الذي

يتلو كتاب الله بفعل القراءة.[1] ومن حيث الاصطلاح: هي العلم بالكيفيات والطرائق والتوصيات والتوجيهات من تخفيف، أو تشديد، أو الاختلاف بين الحرف بين قراءة وأخرى، في حال الأداء والقراءة للكتاب العزيز، وهي التي تأتي بالمشافهة والمواجهة والتلقي والسماع، ولا يمكن معرفتها وإتقانها دون ذلك السبيل.[2] فالقرآن والقراءات حقيقتان، لكل حقيقة منها ما يميزها، فالقرآن هو الآيات المتواترة النازلة عن طريق الوحي الدالة على الإعجاز والفصاحة وكمال البيان، بينما القراءات هي التنوع والاختلاف في الأداء لبعض الحروف أو الكلمات وما يتعلق بها من تشديد وتخفيف وغير ذلك من قواعد القراءات وأسانيدها.[3] والتَّعريفات للقراءات القرآنيَّة كثيرةٌ جدًّا.[4] والمرادُ

---

1 انظر: إبراهيم مصطفى– آخرون، المعجم الوسيط، 722/2.

2 انظر: محمد الصباغ، لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، 164.

3 انظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، 381/1.

4 للتوسع في تعريفات القراءات القرآنية، انظر: نبيل آل إسماعيل، علم القراءات نشأته أطواره أثره في العلوم الشرعية، 26–28. وانظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 410/1.

منها هنا هو نقلُ المفهوم اللُّغوي البسيط، والاصطلاحي العام كما ذكرنا.

وفي مقابل ذلك لابدَّ لنا من ذكر الفروق والوجوه المختلفة بين المعاني الَّتي تندرج تحت كلمة القراءات؛ إذ نجد مَنْ يفرِّقُ بين القرآن والقراءات، كما ذكر الزَّركشي بأنَّهما حقيقتان مختلفتان، فالقرآن هو الوحي المنزَّل على النَّبي محمد ﷺ، بينما القراءات هي اختلاف الألفاظ المذكورة من قبل الوحي في الكتابة أو التَّخفيف، وهناك من يذهب إلى أنَّ القراءات والقرآن لفظان مترادفان؛ كما يرى ابن دقيق العيد، فقد أطلق "تسمية القرآن على القراءات ولو كانت شاذَّة، وكذا عدد من المعاصرين، أطلقوا عليها بمصطلح التَّرادف من مثل محمد سالم محيسن يقول في الرَّد على ما ذكره الزَّركشي الَّذي فرَّق بينهما: أرى أنَّ كلاً من القرآن والقراءات حقيقتان بمعنى واحد، يتَّضح ذلك بجلاء من تعريف كل منهما، ومن الأحاديث الصَّحيحة الواردة في نزول القراءات... كذلك لا بُدَّ من التَّفريق بين القراءات والأحرف، ففي عصر الصَّحابة لم يكونوا يفرَّقون

بين كلمة حرفٍ وكلمة قراءة، وكان اللَّفظان يطلقان على سبيل التَّبادل، أمَّا بعد تدوين العلوم وتمييز بعضها عن بعض، فقد صار مصطلح القراءات يختلف عن الأحرف؛ إذ أصبحت الأحرف هي اللُّغات أو الأوجه الَّتي نزل عليها القرآن، وأمَّا القراءات فهي كيفيَّة أداء كلمات القرآن مع نسبة كلّ وجهٍ لناقله من القرَّاء أو الرُّواة عنهم، كذلك لا بدَّ من التَّفريق بين علمي التَّجويد والقراءات، فالتَّجويد يراد به: دراسة مخارج الحروف وصفاتها، ولا يُعنى علمُ القراءات بذلك.[1]

لعل اختلاف الوجوه القرآنية بين النحاة يزيد من جمالية التفسير للسياق القرآني المبارك؛ ذلك أن هذا الاختلاف يعود إلى أسباب اختلاف القراءات القرآنية، والتَّي ترجع إلى: قراءة النَّبي ﷺ المختلفة للقرآن، كما يذكر عن الصحابة واختلاف قراءاتهم للآيات كما حاك في صدر أبيّ بن كعب رضي الله عنه عندما قرأ آيةً، وقرأها غيره من الصَّحابة بقراءة أخرى، فلمَّا قَدِموا إلى

1 انظر: عبد الحليم قابة، القراءات القرآنية تاريخها ثبوتها حجيتها وأحكامها، 31-34.

النَّبي ﷺ قال لهم: إنَّ جبريل قال لي: اقرأ القرآن على سبعة أحرف. وكلُّ حرفٍ شافٍ كافٍ. وكذلك من أسباب الاختلافات في القراءات القرآنيَّة اختلاف تقرير النَّبي ﷺ لقراءة المسلمين حيث كان من تيسيره أن يقرأ كُلَّ قومٍ بلسانهم؛ فالهذلي قرأ (عتَّى حين)، أي: (حتَّى حين)[1]، والأسدي قرأ: (تِعْلَمُّون)[2] و(تِعْلَم)[3] و(تِسْود وجوه) [4] و(ألمْ أعْهَد إليكم)[5] .[6]

ومن المهمّ في هذا الباب أنْ نذكرَ مرحلةَ التَّدوين لعلم القراءات القرآنيَّة؛ إذ بدأ تدوين هذا العلم كغيره من العلوم في وقت مبكّرٍ، فمن خلال النظر والفحص والمعرفة بمن ألف أولاً في هذا العلم، نجد العلماء والمؤرخين قد دونوا ملاحظات حول حركة التدوين والتأليف فيها، وذكروا ما رشحوا من الأسماء

1 يوسف 35/12.

2 البقرة 22/2.

3 البقرة 106/2.

4 آل عمران 106/3.

5 يس 60/36.

6 انظر: راضي نواصرة، القراءات القرآنية وموقف النحو والاستشراف منها، 90-91.

التي كانت بدايات الكتابة والتدوين والتصنيف في هذا العلم على يديها، وذلك في ما يجاور القرن الثَّالث الهجري، ولعلَّ التسليم بتلك المقولات ليس كاملاً؛ إذ نجد في تأليفاتهم الَّتي لم يذكرها الكاتب جوانب قليلة تناولت ذلك العلم، والَّذي عليه القول: أنَّ التَّدوين في علم القراءات قد مرَّ بمراحل عديدة، من المرحلة الشَّفويَّة والَّتي كانت في عهد النَّبي ﷺ، ثمَّ في المرحلة الثانية (صدر الإسلام)، واستمرَّت حتَّى ظهور ما يصطلح عليه (نقط الإعراب) والذي قام به أبو الأسود الدؤلي، ثمَّ المرحلة الثَّانية ما بين (60/ 255) وهي المرحلة التي تم ضبط القراءات فيها من خلال رموز نقط الإعراب أو ما يسمى بالإعجام، وقد ظهرت في هذا المرحلة أولى محاولات التَّأليف في مجال القراءات القرآنيَّة على يد تلميذ أبي الأسود الدؤلي، وهو يحيى بن يعمر، وله كتاب في القراءة ولكنَّه ليس جامعاً للقراءات، بل اعتنى بجانب واحدٍ منها وهو مرسوم الخطِّ، ثمَّ عبد الله بن عامر، إمام أهل الشَّام في القراءة، فقد أخذ القراءة عن أبي الدَّرداء وعن المغيرة بن أبي شهاب وغيرهما وكتابه

اختلاف مصاحف الشَّام والحجاز والعراق، وممن دون في هذا العلم أبان بن تغلب الكوفي، وقد ذكر ابن النَّديم له كتابين وهما: كتاب معاني القرآن، وكتاب القراءات.[1]

وكذلك توالت المؤلفات في هذا الميدان بعد ذلك على يد كبار العلماء في ذلك العصر، من مثل: مقاتل بن سليمان وله كتاب القراءات، وأبي عمرو بن العلاء النَّحوي المشهور وله كتاب القراءات، وحمزة بن حسن الزَّيات وله كتاب في القراءات، وزائدة بن قدامة الثقفي وله كتاب في القراءات، وهارون بن موسى الأعور، والأخفش الكبير: عبد الحميد بن عبد المجيد، وعلي بن حمزة الكسائي: إمام القراءة المشهور وله كتاب القراءات، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي وله كتاب سمَّاه الجامع، و ابن سلَّام وقد ألَّف كتاباً في القراءات جمع فيه قراءة خمسةٍ وعشرين قارئاً، والدُّوري والَّذي قال عنه ابن الجزري: إنَّه أوَّل من جمع في علم القراءات، وسهل بن محمد

---

1 انظر: نبيل آل إسماعيل، علم القراءات نشأته- أطواره- أثره في العلوم الشرعية، 98-103.

السِّجستاني، وله تصانيفُ كثيرةٌ منها كتابٌ في مجال تدوين القراءات القرآنيَّة، وغيرهم من العلماء الَّذين كانت لهم الأسبقيَّة في التأليف في هذا الميدان؛ وإن كانت الأدلة في أسبقيتهم للتأليف في هذا المجال ليست قاطعةً كما نعلم، إلا أنَّ ذكر وإجماع العلماء والمؤرخين على ذكره في طليعة مَنْ ألَّف في هذا المجال جعلت لهم تلك الأسبقيَّة لمن بعدهم من علماء القراءات القرآنيَّة منذُ ذلك الحين إلى وقتنا.[1]

وإذا أخذنا بعين الاعتبار بأن الجماليات اللغوية هي التي تأتي من الفعل التأثيري الذي تفعله فينا؛ فإن دراسة النحو للقراءات القرآنية تزيد من شغفنا الجمالي للمعرفة والإدراك والدراية بالأوجه والتأويلات التي تصدر عن النظرة الجمالية عند النحاة والمعربين، وللنظر إلى قراءة أبي إسحاق لقوله تعالى: ﴿**هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾[2] بنصب كلمة (أطهرَ)، والتي خرَّجها ابن جني "بأنه جعلها حالاً من (هن) أو حالاً

1 انظر: نبيل آل إسماعيل، السابق، 98-103.

2 سورة هود، الآية: 78.

من (بناتي) والعامل فيه هو معنى الإشارة، وضرب له مثلاً كقولهم: (هذا زيدٌ هو قائماً). بينما ذهب سيبويه إلى تضعيف هذه القراءة، ورأى أن قراءة أبي إسحاق لها بالنصب جعل (هن) فصلاً، وليت في موضع فصل كالفصل بين المبتدأ والخبر أو غير ذلك من مواضع الفصل المعلومة في النحو. كقولهم في الفصل بـ(هو): (ظننتُ زيداً **هو** خيراً منك)، وقولهم: (كان زيدٌ **هو** القائمُ). وقد تابع عيسى بن عمرو ابن أبي إسحاق في قراءة النصب (أطهرَ) فأنكرها عليه معاصره أبو عمرو بن العلاء.[1] فتعدد الأوجه والخلاف النحوي بين العلماء هو مما يزيد من جماليات التأويل النحوي للنص القرآني ويدفع إلى المزيد من مدارك التأويل والعمل به.

ولعل أهم ما يدفع إلى العلاقة بين جمال التفسير النحوي للقراءات القرآنية والنص القرآني أنّها تأخذنا في مجال معنى (الجميل) في السياق اللغوي، فاللغة والتراكيب هي مصدر الجمال والإبداع الإلهي، كما أن العقل هو الأداة الأولى

1 انظر: عفيف دمشقية، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، 46.

للإبحار بالسياق إلى مرافئ المعنى المنشود والمقصود، عبر الطبائع والأذواق عند المتلقين للسياق القرآني؛ إذ إن الجميل بالمعنى النحوي الذي نرمي إليه "يتوقف الأمر فيه على الظروف وعلى أهواء الناس، وعلى مستوى الثقافة".[1] أي: الجميل النحوي هو القدرة والذائقة على ارتشاف المباني لإنتاج المعاني. ففي الآية الكريمة ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[2] نجد الجمالية النحوية تتكون من خلال تعدد القراءات والذي ينتج تعدد الحركات وعليه تتعدد الأعاريب والتأويلات؛ إذ "القراءة المشهورة برفع آدم ونصب كلمات، وقرأ ابن كثير – قارئ مكة– بنصب آدمَ ورفع كلماتٌ، وقال العكبري: يقرأ برفع آدم ونصب كلمات؛ لأن كل ما تلقاك فقد تلقيته. وقال ابن خالويه: ما تلقاك فقد تلقيته، وما نالك فقد نلته، وهذا يسميه النحويون: المشاركة في الفعل".[3]

---

1 شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، 14.

2 سورة البقرة، الآية: 37.

3 عفيف دمشقية، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، 53.

ولابد لنا من وقفة جمالية في أسلوب القراءات النحوي؛ فالأسلوب القرآني تظهر جمالياته ولذته اللغوية (النحوية) عبر نظمه وتراكيبه التي أذهلت العقول وسلبت الألباب، وهذا ما أكده الرافعي بقوله: "فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب، وألوان المنطق. ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود".[1]

ولا يعزب عن ذوي الألباب أهمية القراءات في إبراز النحو وتفسير القرآن الكريم عبره جمالياً؛ فالقراءات القرآنية هي الوعاء السياقي الذي احتضن الأوجه النحوية وكانت الأداة المثالية لتذوقه من الناحية الجمالية، ألا ترون أن الحجة فيها هي أن توافق الوجه النحوي الفصيح أو الأفصح، يدلل على تلك الفكرة والعلاقة الجمالية بينهما ابن الجزري " نريد به وجهاً من وجوه

1 مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، 125/2.

النحو، سواء كان أفصح أم فصيحاً مجمعاً عليه، أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم".[1] ذلك أنها حجة عند كبار أئمة السلف.

ويضرب ابن الجزري أمثلة على القراءات التي رفضها بعض النحاة وهي حجة وسند عند كبار علماء السلف والتي نستشف منها القيمة واللذة الجمالية للخلاف بين النحو كوجه من وجه الأخذ بالحجة اللغوية ولذة القراءات القرآنية وحجتها الإسنادية المتواترة، يذكر: "بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها كإسكان (بَارِئْكُمْ وَيَأْمُرْكُمْ وَسَبَأْ وَيَا بُنَيْ وَمَكْرَ السَّيِّئْ وَنُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) وإدغام أبي عمرو (وَاسْطَّاعُوا) وإسكان (نِعْمَّا وَيَهْدِّي) وإشباع الياء في (نَرْتَعِي وَيَتَّقِي وَيَصْبِرْ وَأَفْئِيدَةٌ) وضم (الْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا) ونصب (كُنْ فَيَكُونَ)

1 ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضباع، 10/1.

وخفضِ (والأرحامِ)... وغيرِ ذلك.[1] فالشرط عنده الموافقة لوجه واحد من الأوجه النحوية على الأقل عند تفسيرنا للنص وسياق الآيات.

واستناداً إلى هذا كله تظهر جماليات ولذة النحو في تفسير القرآن الكريم من خلال إخضاع السياق القرآني الجليل إلى مادة النحو وتفسيره من الناحيتين المعنوية بالدرجة الأولى والإعرابية بالدرجة الثانية وهي المتفرعة عن الدرجة الأولى والناتجة عنها كما نعلم، ولابد من التنويه إلى أن هذا اللذة والجمالية تأتي من خلال البحث عن القراءة في الآية المدروسة سواء أكانت من المشهور والمتواتر أو من الشاذ أو النادر، وإلى هذا يشير ابن خالويه بقوله في شرح الفصيح: "قد أجمع الناس جميعاً أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك".[2] فلا يراد باللغة في قوله

1 المصدر السابق، 10/1.

2 جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، 168/1.

هذا إلا النحو، أليس النحو هو العمود الفقري والصلب للغة العربية بعلومها وفنونها؛ فاللذة نتاج التفسير القائم عليه والثمر الناضج عن أشجاره.

وبعد فلا مجال للشك بأنّ طريق تفسير القرآن ودلالاته النحوية هو طريق اللذة والجمالية، فالنحو والتفسير وجهان لمادة لغوية واحدة هما: المعنى (سياق الآيات) ولذة الاكتشاف بالنحو (فلقسة اللغة ومنطق التأويل)، فلا يمكن القراءة لأحدهما بعيداً عن الآخر، فلذة الاختلاف في القاعدة والإعراب النحوي عند تفسير الآيات أو التأويل لبعض الكلمات فيها هي منبع من منابع الجماليات بين القراءات القرآنية كنص قرآني مقدس وبين النحو كعلم له الشأن والرياسة في ميدان علوم الآلة اللغوية العربية. فلا يمكن بحال من الأحوال أن نتصور جماليات النحو والتفسير بعيداً عن ميدان القراءات ودورها في البناء والعطاء والتطور والنهوض والتجديد بين علمي النحو والتفسير السياقي المنبثق عن علم الإعراب والتقدير النحوي.

❁❁❁❁❁❁❁

رابعاً: جمالية النحو وأسلوب القرآن

إن قضايا أسلوب النظم في القرآن الكريم من القضايا المهمة التي شغلت الفكر والقلب؛ فالأسلوب القرآني هو الأسلوب الإلهي المعجز الشديد التماسك نصياً، القوي والمتين في العمق والصورة، والذي له من السمات التركيبية العجيب العجاب في ميدان الدراسة والتفسير النحوي لسياق آياته ودلالاتها.

إن دراستنا للعلاقة واللذة النحوية المعنوية الناتجة عن المسارات النحوية في تفسير آي الذكر الحكيم تحتم علينا الحديث عن الأسلوب القرآني وعلاقته بعلم النحو، منطقه وفلسفته في تناول الآيات ودلالاتها جمالياً ومعنوياً وصولاً إلى اللذة التي يحدثها في ذائقة المتلقي وشغفه في إدراك المعاني وصقل الخبرات والمعارف.

لا يمكن لعلم النحو أن يحدث فينا لذة التأويل للسياق القرآني إلا من خلال الوقوف بالنص على المبنى قبل المعنى؛

أي: النظر والبحث في مظاهر التجلي الإلهي للتراكيب واختيارها ذلك الاختيار الدقيق، والذي فيه من أعمق أسرار الفصاحة كثيراً، كما أن فيه من التنوع في الدلالة والتناوب في ميدانه كثيراً أيضاً، وها هو الزرقاني يبرهن على تلك السمات الأسلوبية للنص القرآني والتي تتجلى من خلال النحو ولذة دراسته ودلالاته جمالياً، يقول: "نلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختياراً يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال منذ نزل القرآن إلى اليوم، فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ويلائم ذوقه ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة... فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعاً لحاجات الجميع وافياً تجارب الجميع ملائماً لأذواق الجميع متفقاً ومعارف

الجميع. مما يدل دلالة واضحة على أنه كلام الله وحده أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً".[1]

تتأتى الجمالية واللذة النحوية في دراستها للنص القرآني من خلال الولوج إليه عبر التقسيم وضروب من السمات الأسلوبية التي يتمتع بها النص القرآني ولعل من أهمها:

1- **الأسلوب اللفظي:** نريد به السمات التي نجدها في التعبير اللفظي للنص القرآني، فهو العنصر الذي تتألف منه الكلمات والكلام في الآيات.

2- **الأسلوب التركيبي:** يراد به المجال البلاغي والفصيح الذي اختيرت فيه الألفاظ وجاء ترتيبه وفق الترتيب الإلهي المعجز للبشرية بفصاحتها وعميق معرفتها بلغتها العربية.

3- **الأسلوب البياني:** يراد به الأسلوب التأثيري الذي يحدث النص القرآني في السامع أو المتلقي من الإقناع والإمتاع والتأثر والتأثير حسب الأغراض للمتكلم وما يندرج تحتها من

---

1 محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 308/2.

الطرق والوسائل والعرض وكمال العبارة والإشارة في بعض المواضع البيانية في سياق النص القرآني البديع.

إذا كانت لذة التلقي وجمالية المعنى تنطلق من الفهم الدقيق لمعاني السياق وتفسير الآيات؛ فإن النحو هو المعيل الأول والعامل الأجل في تكوين تلك اللذة والجمالية، فليس من الممكن أن نعرف مواطن الجمال في الأسلوب القرآني وأن نكون قادرين على تفسير المعاني إلا من خلاله، فتخيير الألفاظ وحسن إعرابها وتقدير وجوهها هو من صميم التلقي ومن عظيم مراحل وصول الرسالة النصية إلينا، يؤكد على ذلك الجرجاني في حديثه عن تخير الألفاظ في القرآن والنظم البديع المعجز قائلاً: "واعلم أنَّا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فتستند إلى اللغة، ولكنّا أوجبناها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن (الواو) للجمع، و(الفاء) للتعقيب بغير تراخ، و(ثمَّ) له بشرط التراخي، و(أنْ) لكذا، و(إذا) لكذا، ولكن لأن يتأتى لك

إذا نظمت شعراً وألفت رسالةً أن تحسن التخير، وأن تعرف لكل من ذلك موضعه".[1]

لقد بيّن النحو بأدواته ووسائله أن اللذة والجمالية في النظم القرآني تعود إلى السر المعجز والقول القاطع في الدلالة والتأثير، حتى وقع الفصحاء من قديم الزمان وقت نزول القرآن الكريم إلى يومنا في دائرة الضعف والاستلاب والتسليم لسياقه المعجز وبناء كلماته العظيم وهرم معانيه القوي والقويم، يقول الرافعي مدللاً على ذلك: "حتى أحسّوا بضعف الفطرة القوية، وتخلّف الملكة المستحكمة؛ ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعتراض مساغه إلى هذه النفس؛ إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطلع على قلوبهم، بل هو السر الذي يفشي بينهم نفسه، وإن كتموه".[2]

1 الجرجاني، دلائل الإعجاز، 294/1-250.

2 مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، 125/2.

إن الناظر في الأسلوب القرآني من الجانب النحوي ليجد لذةً لا يجدها في الأساليب العربية من غير النص القرآني المبارك ذلك أن القرآن خير الكلام وخير المقال وخير النظم وخير السياق وخير الأسلوب وخير التعاليم، والله وصفه بأحسن وصف قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾[1] وقوله تعالى في موضع آخر من سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾[2] فالخطاب الإلهي هو الجمال الأسلوبي الرصين، والذي يَبينُ لمن أراد الولوج إلى المعاني والدلالات لتأويله وحسن تفسيره عن طريق النحو، فوسيلته لذلك أحسن الأساليب وأعظم الاستنتاجات وأكمل العبارات وأنصع الأفكار؛ لأنه الجمال وأحسن الحديث الذي أنزله سبحانه وتعالى على النبي الكريم ﷺ وقومه في المرتبة الأولى، ثم إلينا جميعاً من بعدهم.

---

1 سورة الزمر، الآية: 23.

2 سورة يوسف، الآية: 3.

وليس الجمال النحوي ولذة تفسير معاني القرآن الكريم حكراً على الدلالات اللفظية والحصر عليها؛ أي: الحسيات فقط في التوصل إلى جماليات التفسير للآيات والنصوص القرآنية؛ بل إن للمعاني جمالية في الدلالات النحوية أيضاً، فكلما ورد بنا في نص الآيات دلالات من الحق أو الخير أو الأخلاق أو الفضيلة أو غيرها من الدلالات المعنوية عرفنا أنَّ "الجمال لا يقتصر على الدلالات الحسية فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى المعنويات، فللعدل جماله، وللحق جماله، وللشجاعة جمالها، وللتضحية جمالها... وهكذا الكثير من مظاهر الحياة المعنوية فلكل واحدة منها جمالها المعنوي الخاص بها.[1]

إن تباين القراءات النحوية لسياق الآيات القرآنية هو الدليل على أن تفسير النص المعجز عن طريق النحو هو لذة ومتعة لغوية لا حدود لها؛ ذلك أن التنوع في الأساليب والوسائل بين النحاة في الوقوف على المعاني وتعدد الأوجه

1 انظر: أحمد أمين، فيض الخاطر، 116/5.

الإعرابية هو من صميم ثقافة الاختلاف والذائقة اللغوية (النحو) وهي وليدة اللذة وعنوان الجمالي بين النحو والتفسير.

كذلك تظهر اللذة النحوية وجمال تفسير الآيات القرآنية من خلال الإلمام بأسرار التعبير القرآني ومزايا الألفاظ وورد المعاني عبرها، فللتكرار في النحو أسراره التعبيرية والتأويلية. فلو نظرنا في عدد من السور التي تبدأ بالحروف فقط كـ (ص، ق... وغيرها) لوجدنا فيها كما يقول المفسرون كثيراً من تكرار لهذه الحروف في سياق آياتها. جاء في ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي: "إنما وضع في أول كل سورة منها ما كثر ترداده فيما تركب من كلمها ويوضح لك ما ذكرت أنك إذا نظرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلمها وحروفها وجدت الحروف المفتتح بها تلك السور إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلمها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها... ففي اطراد ذلك في المتماثلات مما يوجد له النظير ما يشعر بأن هذه لو وجد مماثلها لجرى على ما ذكرت لك وقد اطرد

هذا في أكثرها فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الوارد فيها".[1]

ومن عظيم تفسير القرآن أننا نجد اللذة والجمالية في أسلوب التقديم والتأخير وهو من الأساليب الفخمة المعجزة التي نجد لها خصوصية في نص القرآن تختلف عن خصوصياتها في السياقات الأخرى، فلو وقفنا عند قوله تعالى في تقديم المعمول؛ أي: تقديم (المفعول) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[2] فالخطاب في هذا الآية من الملائكة للكفار لتقريعهم وتوبيخهم وذلك لسوء عبادتهم لغير الله سبحانه وتعالى كما نعلم، والتقديم في هذه الآية كان لهدف نحوي وهو الدلالة على الأهمية في الدلالة المعنوية، فالسياق والأسلوب القرآني يذهب إلى تقديم الأهم على المهم دوماً، فإياكم: هي المفعول المقدم لـ(كانوا يعبدون)

---

1 أحمد بين الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، 23/1.

2 سورة سبأ، الآية: 40.

وله أسبابه النحوية والمعنوية ومعرفته بالذائقة اللغوية هو لذة النحو التي لا تنقضي.[1]

ونستنتج مما سبق أن الأسلوب القرآني ولذة النحو من القضايا المهمة التي شغلت فكرنا وأخذت حيزاً كبيراً من مدارك وتيارات الدرس النحوي في تراثنا، وكان الهدف الأول من هذه الاجتهادات والدراسات الوقوف على مظاهر التماسك النصي للآيات القرآنية بوساطة النحو وفنونه وفروعه، وطريقنا في ذلك الانطلاق من المباني والتراكيب والسياقات للوصول إلى المعاني والدلالات، فالقرآن الكريم اختار الألفاظ العميقة الدلالة في المواضع المناسبة له وحاشا أن يكون ترتيبه على نمط اعتباطي دون حساب لسحر البيان والألفاظ وفعلها التأثيري في السامع والمتلقي والقارئ، كذلك يكون الولوج إلى الأسلوب ولذة النحو وجماليات تفسير المعاني ودلالات السياق من خلال

---

1 انظر: السيد عبد الغفار، قضايا في الأسلوب القرآني، 73.

الأساليب العديدة أو المتدرجة والتي تبدأ بالأسلوب اللفظي، ثم تنتقل إلى الأسلوب التركيبي، ثم الأسلوب البياني.

وقد بين النحو بأدواته ووسائله أن اللذة الجمالية في النظم القرآني تعود إلى السر المعجز والقول القاطع في الدلالة والتأثير، حتى وقع الفصحاء من قديم الزمان وقت نزول القرآن الكريم إلى يومنا في دائرة الضعف والاستلاب والتسليم لسياقه المعجز، وبناء كلماته العظيم وهرم معانيه القوي والقويم.

ونختم هذا القسم بقول الرافعي في حدثته عن الأساليب القرآنية وعظمة الإعجاز وقوة الدلالة فيه: "أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق، فجرى على أصولهما في أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية على إطلاقها في هذه العربية، فهو يستعير حيث يستعير، ويتجوز حيث يتجوز، ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرر إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها؛ لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزاً في جهة من جهاته

والاستبيان فيه ثمة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه وأبلغ في القصد والاستيفاء".[1]



1 مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، 170/2.

الفصل الثاني: جماليات النحو والأبواب النحوية

يقدم هذا الفصل – بعون الله– معلومات وتفاصيل دلالية لبيان العلاقة بين الجماليات النحوية وتفسير النص القرآني المبارك، وسيعمد إلى تلك الجماليات من خلال بيانها في فروع وعدد من الأبواب النحوية والتي ستبدأ بالمرفوعات وما تحتويه من الأقسام، ثم بالمنصوبات وما تحتويه من الأقسام، ثم بالمجرورات وما تحتويه من الأقسام، ثم بالجمل وما تحتويه من الأنواع، وأخيراً بأشباه الجمل وما تحتويه من الأنواع، والغاية منه تبيان العلاقة والخدمة الجمالية للنحو في التفسير.

إن قضية الجمالية النحوية والتفسير القرآني تتأسس برأينا من خلال العلاقة العريقة والقديمة بين النحو ومنطق الفلسفة اللغوية؛ إذ إن العلاقة بينهما قديمة جداً تعود جذورها إلى القضايا الاستقرائية والاستنباطية في الفكر اليوناني، وإن كان النحاة هم الأقدم زمنياً قبل أرسطو وصياغته لقانون المنطق المعلومة "فكما أنهما يلتقيان في مصطلحيهما، فكذلك يلتقيان في غايتيهما، فالنحو آلة يعرف بها صواب تراكيب ألفاظ اللغة

ومعانيها من خطئها، والمنطق آلة يعرف به صحة المعنى وتصديقه من خطئه، وكل منها يعتمد طرق الاستقراء والاستنباط، غير أنهما لا ينطبقان تماماً، فالمنطق يستند إلى الأدلة العقلية مفترضاً وحدتها وشمولها، والنحو يستند إلى معطيات اللغة الوصفية معترفاً بأن قواعدها قابلة للاستثناء والتخصيص".[1]

كذلك يؤكد العلماء على أهمية العلاقة الجمالية النابعة بين النحو كعلم منطقي وبين التفسير من خلال البرهنة على الصلة الوثيقة بينهما ونتاج كثير من النحاة القائم على تلك العلاقة؛ إذ نجدها تساير مراحل التطور النحوي عبر الزمن؛ فقد أخذ بها الكثير من النحاة الأوائل من المسلمين العرب من أمثال "(أبي الأسود الدؤلي) و(الخليل بن أحمد الفراهيدي) ومن بعدهما أنصار مدرستي البصرة والكوفة من أمثال (الفراء) و(المبرد)، وكذلك نحاة القرن الرابع الهجري وما بعده، حينما نقلوا التراث اللغوي اليوناني– السرياني– وحاولوا تطويعه مع

1 محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، 557.

مبادئ دينهم الحنيف في شتى الميادين، ثم تجاوزوه بما قدموا من أفكار نحوية جديدة في مختلف قضايا اللغة العربية".[1]

الملاحظ عندنا أن الجمالية واللذة النحوية تقوم بين النحو والتفسير من خلال النحو ودوره في صناعة وصياغة المعنى؛ إذ تتدرج اللذة والجمالية في النحو من خلال وسيلتها وغايتها في التأويل وتفسير المعاني عبر بوابة الإعراب؛ فالإعراب هو الميدان الرحب والمجال الواسع في استنطاق التراكيب وبيان أسيباب نظمها وما إلى ذلك، ثم إن قيمة ولذة النحو تزاد برأينا كلما زادت من عمق ووجه التفسير والتأويل وعدد من مسالكها وطرقها في البحث والتمحيص عن المعنى الأكثر قرباً والمنشود من قبل العقول وشغف الإحاطة بالمعاني بمرتبة لا تنتهي مع كل تداول ومع كل استنباط أو استنتاج.

1 انظر: محمود محمد علي، النحو العربي وعلاقته بالمنطق، 389.

أولاً: جمالية النحو وتفسير المرفوعات

يتناول هذا القسم– بعون الله– المرفوعات من النحو على تنوعها وتعدد أصنافها وأبوابها وفروعها وعلاقتها بالجماليات النحوية والتفسير؛ إذ تشكل المرفوعات من الأسماء والأفعال قسماً كبيراً وباباً واسعاً من أبواب النحو كما نعلم، وسنبين في هذا القسم العلاقة الجمالية بين المرفوعات النحوية وبين تفسير القرآن الكريم مدللين على اللذة النحوية ودورها في بيان الجماليات ودورانها في سياق الآيات للنص القرآني الكريم.

نعلم أن المرفوعات النحوية تنقسم إلى ما يندرج تحت الفعل كالفعل المضارع، وما يعود منها إلى الأسماء كالمبتدأ والخبر، وخبر إن، واسم كان... إلخ. كما نعلم الخلاف بين النحاة في باب المرفوعات بين أصل الأسماء في الرفع والنزاع حولها بين المبتدأ والخبر والفاعل، ولا نريد الحديث عن هذه التفاصيل، بل سيكون دأبنا في هذا القسم أن نلج إلى النصوص القرآنية ونرى تأثير النحو في تفسير الآيات القرآنية في هذا الباب (المرفوعات) لبيان تلك الأواصر ودلالاتها الجمالية.

لنبدأ بالمرفوعات من تأويل بعض الآيات القرآنية التي تشتمل على الحذف ونريد هنا (حذف المبتدأ) لدلالة نحوية جمالية، منها قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ، بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[1] وهذه الدلالة الجمالية يذكرها الفراء بتقديره لحذف المبتدأ (نحن قادرون)[2] فالحذف والذكر في التقدير كما نرى يزيد من شغف العقل للوصول إلى المعنى بعد ذكر المحذوف وهذا من طبيعة اللغة وأسرار الحذف في نصها الجليل.

كذلك يكون حذف المبتدأ في باب المرفوعات مصدر من مصادر التأويل الجمالي للقرآن عبر النحو من خلال ربط الحذف بالسياق السابق إلى التماسك النصي بوساطة التأويل النحوي ونضرب لذلك مثالاً قوله تعالى في وصف النبي محمد ﷺ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾[3]

---

1 سورة القيامة، الآية: 3-4.

2 الفراء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، 208/3.

3 سورة الأحزاب، الآية: 40.

فقد ذهب الفراء إلى أنّ حذف المبتدأ فيها يعود إلى دلالة السابق من الكلام عليها، والتقدير: هو رسولُ اللهِ، في ذكره لقراءة ابن أبي عبلة بالرفع، وأصلها بالنصب في المصحف (رسولَ) وقد ذكر هذه القراءة وتابعه فيها الأخفش وابن خالويه وابن جني ومكي القيسي.[1] فالقيمة الجمالية تتأتى من خلال البحث عن المحذوف من النص والسياق وكذلك تتأتى من خلال ذكر التأويل للمحذوف، وبذلك نرى فعله التأثيري بوساطة التعبير والأسلوب القرآني الذي يتمتع بخصائص البلاغة والفصاحة ويترك المجال مفتوحاً للفعل النحوي والتأويل الدلالي لتأثير ما بين نص الجلال وفهم الجمال عبر تفسيره.

ويبدو أن النحو وجماليات التأويل تأخذ عمقاً دلالياً أكبر عندما ترتبط بتفسير الآيات التي تلتصق وتكون محكمة بين اللفظ والدلالة فالقوة في اللفظ قوة في الدلالة، واللين في اللفظ

---

1 انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، 14/195-197.

هو لين في الدلالة، وما إلى ذلك من أغراض التعبير السياقي في القرآن، ويشير الجرجاني إلى جماليات الحذف للمبتدأ من سياق الكلام عبر ذكره لعدد من الأبيات الشعرية وحذفه فيه قائلاً: "فتأمل الآن هذه الأبيات، واستقرها واحداً واحداً، وانظر إلى موقعها في نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم فليت النفس عما تجد، وألطفت النظر فيما تحس به. ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد".[1]

إن الطريق إلى تفسير المرفوعات في القرآن الكريم هو الطريق من وإلى النحو؛ أي: توخي المعاني النحوية ووسائلها الجمالية القابعة تحت سلطة المعنى، فالنحو كما يرى الجرجاني هو النضج الجمالي غير المكتمل وما يزال العقل يخضع لسلطته التأويلية وقراءاته العديدة التي تأتي بالجديد مع

---

1 الجرجاني، دلائل الإعجاز، 151/1.

كل مرة، يقول: "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة، والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبئ ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها. ووجدت المعول على أن ههنا نظماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغة وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً".[1]

ويقابل في المرفوعات حذف المبتدأ لدلالة نحوية جمالية كما نعلم حذف الخبر؛ ففي السياق القرآني ترد آيات عديدة وكثيرة تأولها النحاة على حذف الخبر، وهذا الحذف الذي لا يكون اعتباطياً، بل يخضع لقوانين الإعجاز القرآني بنظمه وسبكه وجلالة سياقه وعلاوة فصاحته وقوة تماسكه وتعاضد ألفاظه وهيبة مفرداته وحسن مبانيه وعظمة معانيه ودلالاتها النحوية الجمالية، منها تقدير النحاس في إعرابه للقرآن حذف

1 الجرجاني، دلائل الإعجاز، 34/1.

الخبر لدلالة السابق من السياق في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾[1] والتقدير: ولهم جناتٌ من أعنابٍ.

فلا ريب أن الحذف (المرفوعات) في النص والسياق القرآني هو سر من أسرار التعبير والفصاحة القرآنية وجماليته تتكون من خلال دور النحو ولذة بيان مواطنه كالخبر الذي ذكرنا فكأنه السحر البياني من النظم الرباني، ذكره الجرجاني بقوله: "هو باب دقيق المَسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسِّحر؛ فإنك ترى به ترْكَ الذِّكر أفصحَ من الذِّكر، والصَّمْت عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتَجدك أنطْقَ ما تكون بيانًا إذا لَم تُبِن".[2]

وننتقل إلى الفاعل من المرفوعات ونعرض لعددٍ من الاستعمال القرآني للفاعل في سياقه الجليل، وكيف كان يتعامل

1 سورة الانعام، الآية: 99.

2 الجرجاني، دلائل الإعجاز، 146/1.

النحو مع الفاعل في سياقه؟ لبيان جمالياته ودلالاته ومعانيه، فالفاعل في الاستعمال القرآني يتراءى من خلال عددٍ من الصيغ والاستعمالات والتي لا تقتصر على الظاهر من الدلالة؛ إذ نجد في القرآن الكريم كثيراً من السياقات التي تناولت الفاعل وجاء فيها من غير أن يكون الفعل هو المراد حقيقية بل المجاز كما في قوله تعالى:﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾[1] فقد ذكر المفسرون في هذه الآية أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى من المجاز وليس الحقيقة، ذلك أن إسناد الختم إليه سبحانه وتعالى من المجاز، والخاتم في الحقيقة هو الكافر، إلا أن الله هو الذي قدره ومكنه أسند إليه الختم وهو من باب إسناد الفعل إلى السبب؛ فجمالية النحو هنا تظهر من خلال التفريق بين حقيقة الفاعل وكونه مجازاً؛ أي: نسبه إليه وهو الفاعل من حيث المجاز. [2]

---

1 سورة البقرة، الآية: 7.

2 انظر: جاسم المالكي، الفاعل وأنواعه في آيات سورة البقرة، 22.

كذلك في قوله تعالى في موضع آخر من السورة ذاتها ودلالة الفعل في المجاز وليس الحقيقية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[1] فاللعن نسب إلى الله ولكنه كما يرى بعض المفسرين هو من المجاز؛ أي لعنهم لأنفسهم، وذكروا أن كل الآيات القرآنية التي تشتمل على معاني المكر واللعن والخديعة والإضلال والإمداد في الطغيان وتقييض القرين وتسليط الشيطان وغيرها مما يشتمل على القبح والنقص جميعها منسوبة إليه بما يلائم ساحة قداسته ونزاهته عن تلك الصفات السلبية جل علاه.[2] فالعلاقة الجمالية في تفسير هذه الآيات يجب أن تنبثق من الدلالة العميقة في ميدان النحو وليس من المعاني السطحية للألفاظ، وهذا من الأسرار الجمالية للتفسير النحوي.

والسياق القرآني من الناحية الجمالية الدلالية لا يأتي بالفاعل من حيث التنكير والتعريف إلا لدلالات نحوية تعمل

---

1 سورة البقرة، الآية: 159.

2 السابق، 23.

عملها بشكل خاص، فلو تأملنا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[1] فسنرى أن تنكير الفاعل فيها (وجوه) في موضعين في الآية بين البياض للإيمان وبين السواد للكفر. لم يكن فقط للناحية الإعرابية، بل هو الدلالة العميقة على الترغيب ببياض الوجوه والترهيب والتخويف بالسواد، فالإعراب هو سر الجمال في تفسير الآيات ذلك أن الإعراب "كما عرفناه... تعبير لفظي عن المعاني النحوية التركيبية للكلام المعرب، إنما يعني قلبياً أن للإعراب دوراً هاماً في أداء المعنى وفهمه؛ أي: في وظيفة التفاهم؛ لأن المعاني جزء أساسي من المعنى العام للكلام".[2]

ولعل من أعظم صور الفاعل الجمالية في القرآن الكريم أنه جاء بأسلوب الالتفات لدلالة غير المباشر؛ وذلك بهدف التعظيم والتجليل وعدم المباشرة في العتاب لشخص النبي

1 سورة آل عمران، الآية: 106.

2 أحمد حاطوم، كتاب الإعراب، 191.

محمد ﷺ كما في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ، أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾[1] فأسند الفعلين (عبس– تولى) إلى ضمير الغائب، بدل إسناده إلى ضمير المخاطب كما نرى للتعظيم والإجلال للنبي ﷺ وتجنباً لعتابه المباشر، فمن لم يدرك القدرة النحوية ويتسلح بها في فهم النص القرآني يعيش في واد بعيد عن مقاصد السياق القرآني الجليل، وذلك من الشروط التي أكد السيوطي عليها بقوله: "وتمام هذه الشرائط أن يكون ممتلئاً من عدة الإعراب لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام". [2]

ولنختم من المرفوعات ببعض الآيات لاسم كان وأخواتها في النص والسياق القرآني، فلو نظرنا في الآية: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[3] والآية: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[4] والآية: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ

---

1 سورة عبس، الآية: 1–2.

2 جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، 201/4.

3 سورة آل عمران، الآية: 137.

4 سورة الاعراف، الآية: 84.

كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1] والآية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2] وغيرها من الآيات لنلاحظ أولاً أن هذا السياق المرفوع بكونه اسم (كان) في هذا الآيات يأتي ملاصقاً للتعبير القرآني (انظر) ومشتقاته، ولعل فيها جمالية دلالية نحوية، وهي أن النظر في عواقب الأمور يقودنا إلى تجنب الخطأ وأخذ العبرة ممن سبق، فنحن ننظر إلى السياق فيها وموقع كل كلمة وتركيب عبر مجهر النحو وفلسفته الجمالية؛ إذ إنه "أقوم طريق يسلك في الوقوف على معناه ويتوصل به إلى تبيين أغراضه ومغزاه معرفة إعرابه واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه". [3]

وخلاصة ما سبق أن النحو وتفسير القرآن يخضعان لعلاقة جمالية متأصلة في بيان إعراب المرفوعات من السياق والآيات على تعدد فروعها وأقسامها، وقد ذكرنا في هذا القسم

1 سورة يونس، الآية: 39.

2 سورة يوسف، الآية: 109.

3 العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تح: محمد علي البجاوي، 1/1.

عدداً من الآيات ووقفنا فيها على المعاني والدلالات ولم نغفل التأصيل والبيان للتفسير الجمالي النحوي النابع عن إدراك العلامات الإعرابية ودورها في ترسيخ وبيان تلك الجماليات وصوغ معانيها عبر مبانيها وتراكيبها ونصها المعجز.



ثانياً: جمالية النحو وتفسير المنصوبات

بعد الكلام على العلاقة الجمالية بين التفسير والنحو في المرفوعات في نصوص وآيات السياق القرآني سنعمد في هذا القسم إلى ذكر الجماليات المستخلصة والمتعلقة بفهمنا للنص القرآني من خلال المنصوبات وأنواعها ومواقعها ودورها في بيان المقاصد الجليلة عبر الإبحار في عوالمها والنهل من دلالتها وتفسير معانيها.

لابد لنا من التناول الجمالي في قسم للمنصوبات عبر ثقافة الاختلاف وتعددية الآراء والتفسير؛ إذ يعدُّ موضوع الخلاف النَّحوي في تفسير المنصوبات من أهمِّ الموضوعات التَّي دارت في حياة وكتب النَّحويين منذ نشأة علم النَّحو مُروراً بتعدُّد مذاهبه وتياراته ومناهجه وطرق الحكم فيه إلى يومنا الحاضر ولاسيما في إعراب وتفسير المنصوبات في السياق القرآني؛ إذ لا نكاد نجد مجلساً من مجالس التفسير والإعراب إلا وجدنا فيه ذكراً لموضوع الخلاف بين النُّحاة. كما بدأ الحديث ينتقل بهم إلى فنونه ووسائله ومذاهبه ومشاربه في

النصوص والآيات القرآنية، وما يشمل ذلك من تقسيمات وتفريعات وتعليلات وطرحٍ للآراء والنِّقاش في نواحي الخلاف وفي محيطه.

ونؤكد أنه ليس الاختلاف في النَّحو إلا باباً من أبواب الإبداع والتَّأليف لدى النُّحاة وقسماً مهماً من أقسام التدليل الجمالي للتفسير؛ ولذلك برع النحاة في بيان أهميته ودوره في التفسير كمكي بن أبي طالب القيسي، وقد جمع في كتابه المشهور (مُشكل إعرابِ القُرآن) الاختلافات الإعرابيَّة بين النُّحاة في أعاريبهم لكتاب الله العزيز، فهو يذكر السَّبب الرَّئيس لتأليف كتابه؛ "إذ رأى أنَّ التأليف في الأبواب النَّحوية بين الرفع والخفض والجر وظواهر المسائل النَّحويَّة كالفاعل والمفعول واسم وخبر إنَّ هو مما لا يُحتاج إليه؛ لأنَّه من المشهور والمعلوم لدى الجميع ومما يستوي فيه المبتدئ والمتقن بالنحو والإلمام بتفاصيله. [1]

1 انظر: مكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، تح: حاتم صالح الضامن، 28.

وكذلك ذكر أنه جمعه وهدفه بذلك القصد بأن "تظهر هذه المسائل أو ما سماه بمشكل الإعراب لتكون نفعاً لطلبة ومحبي علم النَّحو أو الباحثين في ميدانه الرحب؛ ولذلك كان هذا الكتاب من الموائد النَّحوية العالية المرتبة والتي لا يستطيع الولوج إلى دقائقها إلا من قطع الشوط الرئيس في النحو في جميع أبوابه من المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والجمل والتراكيب والمفردات أيضاً. [1]

بما أن الخلاف في المنصوبات يشكل جمالية ولذة في تفسير المعاني عبر النحو، فلا بدَّ أن نعرف أن المنابع الخلافية الأولى في المنصوبات ليست في الرأي النحوي فقط، بل كانت في المصطلحات وتسمياتها وما يطلقونها عليها "والتي لم تستقر وتُرى إلى الوضع الذي هي عليه إلى وقتنا الحاضر إلا منذ بداية القرن الرابع الهجري وقبل ذلك كنا نجد فيها تداخلاً عجيباً، وذلك التداخل ليس فقط عند مدرسة أو تيار واحد، بل حتى نجد ذلك بين المدرسة الواحدة كالبصريين

1 انظر. السابق، 28.

أنفسهم أو الكوفيين، ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك منها المفعول المطلق، فهو عند سيبويه (الحدث والحدثان– الفعل– المصدر– التوكيد) وعند الكسائي (الفعل) وعند الفراء (المصدر). والظرف مثلاً عند سيبويه (الظرف– المستقر– الغاية– الحين– ظرف الدهر) وعند الكسائي (الصفة) وعن الفراء (المحل– الصفة) وعند ثعلب (الصفة – الأوقات) وغير ذلك نجد من الخلافات النحوية القائمة على المصطلح كثيراً كثيراً. [1]

وكما ذكرنا فإن الخلاف النحوي حول المصطلحات النحوية انتقل بعد ذلك إلى المدارس النحوية ولاسيما الأكثر شهرة منها (البصرية والكوفية) وانتقلت معه الخلافات النحوية بينهم حول تسمية المنصوبات "فالنصب للمعربات عند البصريين يقابله الفتح عند الكوفيين، وكذلك نجد مصطلح (المنادى) عند البصريين، ويقابه (المدعو) عند الكوفيين، ومصطلح المفعولات عند البصريين ويراد به المفعولات الأربعة

---

1 انظر: منصور صالح الوليدي، الخلاف النحوي في المنصوبات، 52– 53.

(المفعول فيه– المفعول معه– المفعول المطلق– المفعول لأجله) ويقابله عند الكوفيين (شبه المفعول). والمفعول المطلق عند البصريين ويقابله عند بعض الكوفيين (الفعل– المصدر). ونجد الحال عند البصريين ويقابله عند الكوفيين (القطع)، وكذلك مصطلح التمييز عند البصريين ويقابله (التفسير) عند الكوفيين... وغير ذلك من المنصوبات. [1] فهذه الخلافات في المصطلحات النحوية قديماً شكلت أساساً لبرج عالٍ من الخلاف النحوي في تأويل المنصوبات وتفسير دلالاتها ومعانيها في القرآن الكريم فيما بعد.

ولعلنا نبدأ بالخلاف النحوي في المنصوبات في النص القرآني من خلال العامل وأثره في تفسير المعاني وصوغ دلالاتها وبيان جمالياتها ولذة تفسير معاني القرآن بأدواتها ووسائلها؛ إذ نجده من المسائل التي لاقت العناية الوافرة عند النحاة فقد اختلف النحاة في عامل النصب في المفعول به مثلاً في قولهم: ضربَ زيدٌ عمراً، فذهب الكوفيون إلى أن

---

1 انظر: السابق، 54–64.

عامل النصب في المفعول به (عمراً) هو الفعل والفاعل جميعاً، وذهب بعضهم إلى أن العامل هو الفاعل فقط، وذهب خلف الأحمر إلى أنه عامل معنوي (المفعولية). بينما ذهب البصريون إلى أن العامل فيهما (الفاعل والمفعول) هو الفعل فقط؛ أي: وحده.[1]

ولأهمية العامل ومكانته في النحو وجماليته في التدليل على المعاني سيكون الحديث أولاً في هذا القسم عن المنصوبات والخلاف النحوي القائم على العامل فيها، ففي تأويل الاسم المنصوب (أطواراً) في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[2] "ذهب بعضهم في إعرابها على (الحال) وقد أوّلها بالمشتق، والتقدير: متنقلين من حال إلى حال، والعامل في نصب (أطواراً) عندهم هو الفعل (خلقكم). بينما ذهب آخرون إلى تضمين الفعل (خلقكم) معنى فعل آخر(جعلكم) وتعرب

1 أبو بكر الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، المسألة 11.

2 سورة نوح، الآية: 14.

(أطواراً) عندهم على المفعول الثاني والعامل في النصب له هو الفعل المضمن (جعل) ويراد به التصيير.[1]

ونذكر من الأمثلة الخلافية في منصوب الاسم من النص القرآني وما يكتنفه من الدلالة الجمالية عند النحاة (المفعول المطلق) وذلك بحثاً عن المعنى القويم والسليم. كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [2] "فقد اختلفوا في العامل في نصب المفعول المطلق المذكور من حروف الفعل (تبتيلاً) فرأى المبرد وابن خروف وسيبويه أن العامل في نصب المفعول المطلق في هذه الآية هو فعل مضمر والتقدير: (وتبتل إليه **وبتِّلْ** نفسك تبتيلاً). بينما رأى السيرافي والمازني وابن مالك إلى أن العامل في نصب المفعول المطلق فيها هو الفعل المذكور في الآية (تبتل) لاتفاقهما؛ أي: الفعل والمفعول المطلق (مصدره) في الحروف، ولعدم الحاجة عندهم إلى

1 انظر: الهمداني، الفريد في إعراب القرآن المجيد، تح: فهمي حسن النمو وفؤاد علي مخيمر، 4/533- 534.

2 سورة المزمل، الآية: 8.

التقدير للفعل المضمر كما ذهب إليه الآخرون.[1] فنحن عندما نناقش المسائل الخلافية بين النحاة في تأويل الآيات بناءً على الثقافة والنتاج العقلي الاختلافي، نجد بلا شك تلك الجمالية التي لا نجدها بعيداً عن تلك الثقافة ودورها في إيراد المعاني، ووسيلتنا في ذلك النحو فهو "سمة أصلية من سمات لغتنا؛ إذ إنه به تتميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين (السياقات والنصوص) ... وقوانين الإعراب هي المعوضة عن السليقة، والعاصمة من الزلل ومواطن الخطأ والابتعاد عن جادة الصواب كما نعلم. [2]

وإن كنا نناقش الخلاف النحوي في المنصوبات وعلاقته التفسيرية النحوية الصادرة عن جمالية الثقافة الاختلافية وحسن تأويل المعاني، فلا ريب أن نذكر المفعول مع واختلاف النحاة في عامل نصبه والذي ورد في القرآن في عددٍ من الآيات المباركة نذكر منها قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ

---

1 انظر: منصور صالح الوليدي، الخلاف النحوي في المنصوبات، 158-159.

2 انظر: عبد الفتاح حبيب، النحو العربي بين الصناعة والمعنى، 2.

لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾[1] فمن وجوه إعراب الواو للمعية والاسم المنصوب بعدها (وَشُرَكَاءَكُمْ) مفعول معه منصوب. ومنها الآية: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2] فمن وجوه إعراب الواو للمعية والاسم المنصوب بعدها (وَالْإِيمَانَ) مفعول معه منصوب، ومنها الآية ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾[3] فمن وجوه إعراب الواو للمعية والاسم المنصوب بعدها (وَالشَّيَاطِينَ) مفعول معه منصوب... وغير ذلك من الآيات والنصوص القرآنية الأخرى، والتي نتلمس فيها جمالية ولذة الاختلاف في تأويل عامل النصب في المفعول معه، فهم على عدة مذاهب "فالمذهب **الأول** يعود إلى البصريين وهو عندهم الفعل الذي سبق الواو؛ لأن الفعل أصبح قوياً بهذه الواو فتعدى إلى الاسم فنصبه. والمذهب

1 سورة يونس، الآية: 71.

2 سورة الحشر، الآية: 9.

3 سورة مريم، الآية: 68.

الثاني يعود إلى الأخفش والذي يرى أن عامل النصب فيه هو النصب على الظرف؛ لأن الواو واقعة عنده موقع (مع) والواو مؤولة بها؛ فلما حذفنا (مع) قامت الواو مقامها؛ أي: نصبت على الظرف. والمذهب **الثالث** يعود إلى الزجاج والذي يذكر أن عامل النصب فيه هو فعل محذوف ويذكر مثال النحاة المشهور وهو (استوى الماءُ والخشبةَ) وقدره (استوى الماءُ و**لامسَ** الخشبةَ). والمذهب **الرابع** يعود إلى الجرجاني وهو الواو. والمذهب **الخامس** يعود إلى الكوفيين ويؤيد ما ذكره الزجاج وهو الاختلاف في تقدير الفعل فلا يجوز عندهم ذكر الفعل وتكريره في القول المشهور: (استوى الماء واستوت الخشبة).[1] فالاختلاف في تقدير عامل النصب بين النحاة كما ذكرنا يزيد من شغفنا ومحاولتنا لقراءة واستنطاق النصوص كما يعمق من فكرنا ويوسع من آفاق تأويلنا للسياق القرآني وأي جمالية تعلو على كل ذلك.

---

1 انظر: الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، 1/ 200.

ولما كانت الأساليب النحوية والغور فيها هي وسيلة النحاة لتعليل العوامل في المنصوبات كانت اللذة والجمالية النحوية ظاهرة عبر مساقات النصوص ومفاتيح معانيها، ألا ترى أن فهم النحو فهما سطحياً ينقص من جمالية ولذة تأويل المعاني واستكثار دلالاتها من خلال تنويع الأدلة والبراهين ووجوه الرأي هو عامل النصب فيها، ولننظر إلى جمالية اختلافهم في عامل النصب للحال، ونذكر منها الحال المفردة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ **فَرِحِينَ** بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[1] وقوله تعالى في موضع آخر من الحال جملة اسمية: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ **(وَهُوَ ظَالِمٌ)** لِّنَفْسِهِ﴾[2] والآية الأخرى والحال فيها جملة فعلية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد (تَّعْلَمُونَ) أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [3] وغيرها من المواضع الأخرى.

---

1 سورة آل عمران، الآية: 169.

2 سورة الكهف، الآية: 35.

3 سورة الصف، الآية: 5.

سنجد أنَّ النحاة كانوا على مذاهب عديدة في مسألة العامل الناصب للحال "**فالأول** يعود إلى سيبويه وذهب فيه إلى أن ناصب الحال هو فعل مقدر (أعرف ذلك). **والثاني** يعود إلى ابن خروف وعنده هو فعل محذوف مضمر تقديره (تنبّه). **والثالث** يعود إلى ابن مالك والذي يرى أن عامل النصب للحال هو كل ما يسبقه في السياق الذي يرد فيه. [1]

وبعد ذكرنا لعدد من الآيات الخلافية في عامل نصبها بين النحاة ومذاهبهم في ذلك ودوره هذا الخلاف في تعدد هم النص وجمالية الوقوف على معانيها وتأويلاتها. نذكر عدداً من الآيات الأخرى والتي النصب فيها لا يقف على العامل بل لكونه جمالية وموضع يؤيد كونه من تأويل المنصوبات فقط، ولنقف عند سورة الكهف ونذكر نصب المفعول لأجله فيها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا **رَحْمَةً** مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ

1 انظر: منصور صالح الوليدي، الخلاف النحوي في المنصوبات، 168-169.

تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً **أَن يَفْقَهُوهُ** وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[2] فرحمةً في الآية الأولى مفعول لأجله منصوب، وتقدير النحاة فيها بيان وتعليل السبب، والمصدر المؤول في الآية الثانية (أن يفقهوه) في موضع نصب مفعول لأجله، وتقدير النحاة لها: كراهةَ أن يفقهوه. فالمفعول لأجله يظهر جانباً من جوانب النحو الجمالية عبر دوره في سياق النصوص والآيات وعبر تناولنا للفهم الدقيق له بالإعراب والتبيان والتعليل.

وخلاصة هذا القسم أن المنصوبات والسياق القرآني قد شكلا منبعاً من منابع الفهم الجمالي لدينا لسياق الآيات، وكانت وسيلتنا في ذلك الوقوف على قسمين الأول: يظهر جمالية المذاهب النحوية في تناولهم للموقع الإعرابي المنصوب حيث اللذة والجمالية تتكون في بيان وإظهار النقد الاختلافي بينهم للعامل ودوره في بلورة الوجوه وتأويل الدلالات وحسن

1 سورة الكهف، الآية: 82.

2 سورة الكهف، الآية: 46.

التفسير. والثاني: وجدناه في التعليل البسيط والمبدئي والأولى لموقع النصب في السياق القرآني وذكرنا فيه عدداً من مواقع ومواضع النصب في سورة الكهف، ونلاحظ أن قيمة النحو تأتي من خلال جماليته في تنويع المدارك لدينا بالأدوات التي نمتلكها وبالقدرة التي يستطيع أن ينوعها في تعميق الصورة والدلالة والتركيب والسياق.



ثالثاً: جمالية النحو وتفسير المجرورات

تشكل المجرورات في النحو العربي قاعدة مهمة من قواعد فهم النصوص وتعلق الاسم وما يحتويه من الدلالات والمعاني بما قبله سواء أكان الاسم مسبوقاً بالحرف كحالة الاسم المجرور أو كان مسبوقاً بالاسم المضاف كما في حالة المضاف إليه، أو المجرور؛ لأنه تابع لما قبله، ولأهمية المجرورات في تفصيل المعاني وتفسير المباني وعمق الدلالات رأينا أنه لابد من الدراسة لهذا الجانب النحوي للتدليل على الأواصر والصلة بين هذين العلمين النحو بمجروراته والتفسير بجلالة تراكيبه وإعجازه وسمو خطابه.

لقد أشار النحاة إلى أهمية المجرورات وجمالياتها ولذة فهمها في السياق القرآني ودورها في ترتيب وصياغة المعاني واختلاف بعضها أو وقوع بعضها موقع بعض أو ما يطلقون علية نيابة حروف الجر بعضها عن بعض، ولنبدأ مع ابن جني الذي ذكرها وتحدث عن أهميتها ومكانتها في الدرس النحوي؛ إذ قال: "هذا باب يتلقاه الناس مغسولًا ساذجًا من

الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه وذلك أنهم يقولون: إن "إلى" تكون بمعنى مع. ويحتجّون لذلك بقول الله سبحانه: (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) أي: مع الله، ويقولون: إن "في" تكون بمعنى "على" ويحتجون بقوله عز اسمه: (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ)؛ أي: عليها، ويقولون: تكون الباء بمعنى "عن وعلى" ويحتجون بقولهم: رميت بالقوس؛ أي: عنها وعليها". [1]

ويذهب في موضع آخر من حديثه عن المجرورات وجمالياتها في التفسير النحوي إلى أن العرب تستخدم بعضها موقع بعض بدافع التوسع (الاتساع) في الاستعمال في لغة العرب، يقول: "اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدَّى بحرف والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانًا بأن هذا الفعل في معنى الآخر... وذلك كقول الله عز وجل: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة، وإنما تقول:

1 ابن جني، الخصائص، 2/ 208– 209.

رفثت بها أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدي أفضيت بـ "إلى". [1]

ولعل جماليات المجرورات في بابها النحوي تظهر من خلال مزجها الدلالي بين علمين جليلين وأساسين من أسس التحليل اللغوي ألاهما النحو والبلاغة، وذلك في باب التضمين؛ إذ إن التضمين جمالية لغوية تجمع بينهما وتتشكل الصورة والمعاني عبرهما وإن كان بعض النحاة كأبي حيان يذهب إلى القول والأخذ باللفظ على وضعه الأصلي؛ يقول: "وما ذكره من التضمين لا ينقاس عند البصريين وإنما يذهب إليه عند الضرورة، أما إذا أمكن إجراء اللفظ على مدلوله الوضعي فإنه يكون أولى".[2] ولكن هذا القول لا يتنافى مع أهمية التناوب لحروف الجر وتأويلها معانيها المتعددة من خلال هذا التلوين المعنوي الجمالي، فلولا هذا التناوب أو

---

1 السابق، 210/2.

2 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: محمد صدقي جميل، 166/7-167.

التضمين لمعاني هذه الاختلاف لما وجدنا للنحو تلك اللذة التي وجدناها ناتجة عن تلون الدلالات وتغيير التفسيرات والتحليلات بجمالياتها اللغوية النحوية.

وإذا كان القول عند أبي حيان بالذهاب إلى الأخذ بالوضع الأصلي لحرف الجر؛ أي على صورته في سياقه الأصلي دون المحاولة لتطوير معانيه ودلالته، فإننا نجد على الجانب الآخر عند النحاة من عرف قيمة التضمين وكونها من أسرار التعبير الإلهي المعجز في كتابه، فالمعاني التي لا تدور في فلك عقولنا وتحليلاتنا النحوية على المعنى الأقرب إلى دلالاتها في سياق الآية تذهل بعيداً عن الوجه الأكثر صواباً، يقول ابن هشام: "قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تظميناً، وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين". [1]

فاللغويين والبلاغيين أدركوا جماليات المجرورات ودورها في سياق التعبير القرآني الجليل وبيان مقاصده، فوصفوه

1 ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، 193/2.

بأجمل الأساليب والفنون. يقول الميداني: "التضمين فن رفيع من فنون الإيجاز في البيان... وهو لمح ابتكاري يلاحظه البليغ، إذ يرى فعلين متقاربين، أو نحوهما، وهو يريد استعمال كل منهما في كلامه، وهذا يقتضي منه أن يصوغهما في جملتين، ويعطي كلا منهما تعديته التي تلائمه، لكنه يرى ما هو أبدع من ذلك وأخصر، وأرفع أسلوبا في أداء بياني جميل، يحرك ذهن المتلقي لفهمه، ويعجب لمناحي الذكاء من البلغاء، وهو أن يختار أحد الفعلين بفنية، فيذكره بلفظه، ثم يأتي بما يتعدى إليه الفعل الآخر، أو يعمل فيه، فيذكره، ويحذف معمول الفعل الذى ذكره، إذا كان له معمول، سواء أكان مفعولاً به، أم غير ذلك، ويستغني بذكر جملة واحدة عن جملتين". [1]

ولمّا كانت جماليات المجرورات وصوغها في السياق القرآني لا تظهر إلا من خلال التضمين وتناولنا للآيات والسياقات وفق معانيه، كان التضمين من الصيغ التي تفرض

---

1 عبد الرحمن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، 2/49-50.

نفسها في الواقع النحوي الجمالي للنص القرآني وتذوقه إعرابياً؛ فلا يتصور أن نجد الفعل الجمالي للمباحث النحوية في المجرورات بعيداً عن التضمين وأقسامه وفروعه، هذه الأقسام والفروعات حتمت على النحويين التأصل فيها في ذاتها ودورها في سياقها والنص الذي ترد فيه، كما في سياقها الساعي إلى إظهار الأوجه الجمالية لفهم النص القرآني وإعرابه على الوجه الأكمل والأشمل.

ولا مندوحة لنا من ذكر بعض قضايا المجرورات في القرآن الكريم من خلال التضمين وإبراز دورها الجمالي في فهمنا وإعرابنا للسياق القرآني، ويشوب التضمين في الأساس المعنى النحوي المجتلب من فهم الحروف وسلطتها التعليلية في النص الذي نقوم بتأويله؛ ولدور الحروف ذكر أهمية التضمين فيها كبار النحاة كقول سيبويه فيها: "هذا باب حروف أجريت مجرى حروف الاستفهام وحروف الأمر والنهي وهى حروف النفي، شبهوها بحروف الاستفهام، حيث قدم الاسم قبل الفعل؛ لأنهن غير واجبات، كما أن الألف وحروف الجزاء

غير واجبة، وكما أن الأمر والنهى غير واجبين. وسهل تقديم الأسماء فيها؛ لأنها نفي لواجب، وليست كحروف الاستفهام والجزاء، وإنما هي مضارعة ... وذلك قولك: ما زيداً ضربته ولا زيداً قتلته". [1] ونذكر من الآيات في هذا الموضع قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾[2] فقد قال فيها النحاة كالقرطبي في تفسيره: "وما علمتنا بمعنى (الذي)؛ أي: إلا الذي علمتنا، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى: إلا تعليمك إيّانا". [3]

وقد نرى جماليات تذوق السياق القرآني ظاهرة من خلال الالتباس التقديري في المجرورات وموقع بعضها موقع الأخرى، كالتداخل والالتباس بين (في– على) والتي وقف عندها النحاة كثيراً وذكروا معانيها وتداخل التقديرات والتأويلات الناتجة عنها وكان بعضهم في بعض الآيات يقف عليها دون أن يفرق بينها

---

1 سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، 145/1.

2 سورة البقرة، الآية: 32.

3 انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،285/1.

بل يسوّي بينها من حيث الدلالة كقول الزمخشري في تفسير الآية: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[1] مع تسويته بينها دون التفريق بين تقدير (في) في موضع (على) أو العكس: "فإن قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل: وفي آذاننا وقر، ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: هو على نمط واحد؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة. وعلى قلوبنا أكنة، والدليل عليه قوله تعالى: (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة: لم يختلف المعنى، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني". [2]

بينما يذهب غير الزمخشري من النحاة بنظرة وذائقة جمالية قائمة على المعنى إلى التفريق بين الدلالتين والترجيح

---

1 سورة فصلت، الآية: 3– 5.

2 الزمخشري، الكشاف، 186/4.

الجمالي بين عمل كل منها كما نجد ذلك في الرد الذي قال به أبو حيان في تفسيره لهذا الآية (السابقة)، قال: "إن في أبلغ في هذا الموضع من على؛ لأنهم قصدوا إفراط عدم القبول لحصول قلوبهم في أكنة احتوت عليها احتواء الظرف على المظروف، فلا يمكن أن يصل إليها شيء، كما تقول: المال في الكيس، بخلاف قولك: المال على كيس؛ فإنه لا يدل على الحصر وعدم الحصول دلالة الوعاء. وأما في قوله: إنا جعلنا، فهو من إخبار الله تعالى ولا يحتاج إلى مبالغة". [1]

وليس ثمة شك في أن القدرة الجمالية للمباحث النحوية (المجرورات) هي الدالة على وعي النص والسياق القرآني، كما هي السبيل الدلالي العميق للولوج إلى المعاني وإعرابها وتمظهرها نحوياً، فالسياق القرآني (الآيات) سياق أسلوبي يحمل بين طياته وجمله كثيراً من العقود و النفائس غير المستخرجة مهما تقادم الزمن، فما تزال الدراسات النحوية للقرآن الكريم وإعرابه نصوصه وآياته المباركة في طور التجدد

1 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 9/ 285.

والتحديث كما نعلم، وما يزال نهل النحو من الجمل والتراكيب وسياق القرآن في دورة حداثية لانهاية فيها، فالنحو هو الجمال والمرآة التي تسطع بالمعاني والدلالات كما أنه المرآة التي تعكس أيضاً عمق وغور المباني بالمجرورات ودلالاتها وأسرار تعبيراتها ومكنوناتها وأساليبها القرآنية المعجزة.

وإذا كانت الجماليات النحوية في قسم (المجرورات) تنبي على مجموعة من العلاقات والعلامات والدلالات التي نستنبطها من خلالها الحكم الإعرابي؛ فإنه من المهم لنا أن لاننس السياق وتأثيره الجمالي في إدراكنا لدور المخفوضات في النص وتحويلها المعنى من السطحي إلى المشوق العميق في الدلالة والتأويل؛ إذ "إنّ مثلَ الجُمل القرآنية وما تحمل من معانٍ ودلالات كمثل حبّات نفيسة الجوهر، نظمت في عقد متكامل تمثله السورة القرآنية. أو نُضّدت في قطعة نادرة مصوغة أيدع صياغة من قطع الحلي مع التناسق التام والبديع. ويلاحظ أن حبّات العقد أو جواهر قطعة الحلي ليس من الضروري أن تكون كلها من صنف واحد كاللؤلؤ مثلاً، إلا

أن الناظم أو المنضّد لها قد جعل لها منطلقاً واحداً أو مركزاً ترجع إليه، والتوزيع في الحبات أو الجواهر النفيسة توزيع فني بديع، والسلك الناظم لها أو الأرضية يدرك بالفكر الثاقب". (1)

ونهاية المطاف وحسن المستضاف في المجرورات وأحكامها الجمالية النحوية نجد أن النحو هو الطبق الذي توزعت فيه فاكهة المعاني المستخرجة من مباني المجرورات والتي نتذوقها، فنجد فيها جمالية الطعم؛ لأنها من سبك ونظم الإله المعجز، كما نجد فيها الألوان المتعددة والتي تشير إلى التعدد في الأسلوب القرآني الكمالي الجليل والبارع البديع.



1 عبد الرحمن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل تأملات، 11.

رابعاً: جمالية النحو وتفسير الجمل

إن نحو الجمل هو وليد المعنى الدلالي المتكامل؛ إذ هو الخروج عن المفرد إلى التركيب، وهو إطلاق العنان العقلي لفلسفة التراكيب ليس من ناحية المفرد ودوره في الإعراب والدلالة الجمالية على المعنى، بل هو أن تجوب التراكيب آفاق المعاني وتنتشر الدلالات الجمالية من خلال أركان الجملة وسياقها ونوعها بين موقعها الإعرابي من حيث الفعلية والاسمية ومن حيث أن يكون لها الموقع في الإعراب أو لا يكون لها الموقع الإعرابي كالجمل التي لا محل لها من الإعراب، والذي نحن فيه في هذا القسم هو أن ندلل على العلاقة والصيغة الجمالية المتأتية من النحو وتفسير المعاني القرآنية بمواقع الجمل ودلالاتها جمالياً.

لقد نظر النحاة القدامى إلى الجملة وربطوا تعريفهم لها بين الجملة والدلالة الكاملة على الفائدة التي تحتويها في السياق الذي ترد فيه؛ قال فيها ابن جني عندما عرف الكلام وتحدث عن الجمل: "أما الكلام: فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد

لمعناه. وهو الذي يسميه النحويين الجمل، نحو: زيدٌ أخوك، وقامَ محمدٌ، وضربَ سعيدٌ، وفي الدَّار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاءِ وعاءِ في الأصوات، وحسّ، ولبّ، وأفّ، وأوّه، فكل لفظ استقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام. وأما القول فأصله أنه كل لفظ مدل به اللسان تاماً كان أو ناقصاُ. فالتام هو المفيد؛ أعني الجملة، وما كان في معناها، من نحو: صهٍ وإيهِ. والناقص: ما كان بضد ذلك، نحو: زيد، ومحمد، وإن، وكان أخوك، إذا كانت الزمانية لا الحدثية. فكل كلام قول، وليس كل قول كلاماً".[1] فالعلاقة الجمالية بين الجملة وتفسير معانيها نحوياً عند ابن جني تنطلق من القدرة النفعية للدلالة المعنوية على الجملة ودورها في الكشف عن المعاني وظهورها في سطح المعنى السياقي وتمحورها حوله.

وكذلك نجد غيره من النحاة ممن يذهب إلى أن العلاقة الجمالية بين الجملة والمعنى الذي تؤديه تقوم على التفصيل

---

1 ابن جني، الخصائص، 18/1.

بالنفع والقصد كقول العكبري: "الكلام عبارة عن الجملة المفيدة فائدة يسوغ السكوت عليها عند المحققين لثلاثة أوجه:

الأول: أنه مشتق من (الكلم) وهو: الجرح، والجرح مؤثر في نفس المجروح فليزم أن يكون الكلام مؤثراً في نفس السامع.

والثاني: أن الكلام يؤكد به (تكلمت)، والمصدر المؤكد نائب عن الفعل والفاعل، وكما أن الفعل والفاعل جملة مفيدة، كذلك ما ينوب عنه الكلام.

والثالث: أن الكلام ينوب عن التكليم والتكلم، وأدنى درجاته أن يدل على جملة تامة".[1] وقول ابن هشام في تعريفها والتفريق بينها وبين القول (الكلام): "الكلام هو القول المفيد بالقصد والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله كقامَ زيدٌ، والمبتدأ وخبره كزيدٌ قائمٌ وما كان بمنزلة أحدهما نحو: أقائمٌ الزيدانِ، وكان زيدٌ

---

1 العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب، 1/41-42.

قائماً، وظننته قائماً، وبهذا يظهر لك أنهما ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس".[1]

بينما اختلفت النظرة الجمالية إلى الجملة النحوية والمعنى عند المحدثين؛ إذ يرون أن العلاقة الجمالية بينهما لا تتوقف على التفريق بين الجملة والقول أو الكلام وبين عناصر السياق الأخرى، بل ينظرون إليه على أنه عنصر له "حساسية خاصة في تحديد المعاني وتحققها في الذهن كتلقينا للنص والسياق القرآني الجليل، وذلك أن الجملة النحوية تربط العلاقة الجمالية وتحيلها إلى مبدع النص، كما وتبين ما يميز به هذا السياق (الآيات) عن غيرها بخصائصه ودقائقه ودلالاته، فالمعنى الجمالي الذي يرد ويأتي به المفرد من الدلالة الإعرابية كالعطف والمعطوف أو الفعل ونوعه، أو الاسم المنصوب وموضعه لا يأتي بالدلالة الكمالية والجمالية للمعنى بتمامه كما تفعل الجملة في دلالاتها وبيانها للسياق والمعنى الكامل

1 ابن هشام، مغني اللبيب، 490.

الذي تحتويه الآيات المباركة سواء أكانت لوحدها أو بربطها بغيرها من الجمل الأخرى. [1]

والحقيقة أن جمالية النحو وتفسير القرآن الكريم تظهر من خلال الفروق اللغوية والدلالية بين الجملتين الفعلية والاسمية؛ إذ تتبلور الجمالية فيها من خلال تقريب المفاهيم وتحليل العبارات في مساقات هاتين الجملتين، فلكل جملة من هذه الجمل وسائلها في التعبير عن سياقها الواردة فيها، كما أن لها من الميزات والسمات ما يجعلها تتفرد عن غيرها من الجمل الأخرى، والقاعدة الأساس في هذا المجال كما نعلم هي التبدل والتحول والتغيير الذي يظهر في مجال وسياق الجملة الفعلية، والثبات والاستقرار في الصورة والدلالة في جانب الجملة الاسمية في درايتها وتناولها في عملنا وإظهارنا لها عبر تفسير الآيات المباركات.

---

1 انظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 145.

ولا يمكن أن نتصور جمالية النحو وتفسير الجمل بعيداً عن دورها في التماسك النصي والسياقي للنص القرآني؛ إذ إن "النظام النحوي واللغوي قد وضع عدداً من وسائل الترابط في جانب الجملة، لبعضها يعود إلى فهمنا وإدراكنا لماهية الجملة وسياقها ونوعها وإعرابها... ويعود جزء منها إلى الوسائل اللغوية والدلالية للجملة التي ندرس تفسير الآية عبرها. ومهما تعددت هذه الوسائل وتنوعت؛ فإن الجامع فيها هو الهدف المنشود لها (الجملة) وهو خدمة النص القرآني وتقريب المعاني وتجلي المبنى عن معانيه من خلالها ووفق مستويات تحليلها وتجنب عدم اللبس في أداء المقصود، بعيداً عن الخلط من خلال الإدراك الجمالي الكامل لأقسامها وأنماطها والوقف على أسرار تماسكها النصي. [1]

ولنعرض في السطور القادمة عدداً من الآيات القرآنية ونبين مظاهرها الجمالية في جانب تفسيرها والإعراب النحوي لها، ولنقف أولاً عند الجملة الكبرى والصغرى، في قوله الله

1 انظر: محمد حماسة، بناء الجملة العربية، 87.

سبحانه وتعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[1] فقد اختلف النحاة في تقدير إعرابهم لهذه الجملة (والشجر يسجدان)؛ إذ ذهب ابن جني إلى أن هذه الجملة كبرى كما ذكر في مصطلح الأول لذكر الجملة الكبرى والصغرى قبل ابن هشام دون أن يفصل فيها، وقال: هي جملة كبيرة. [2] بينما ذهب ابن هشام في المغني إلى أن الحديث والتفصيل عن الجملة الكبرى والصغرى ومواضعها.[3] وذكر لها أمثلة وقد سار النحاة على منواله من بعده في جانب الإعراب للجملة الكبرى والصغرى، فنحن عندما نذكر هذه الاختلافات في الإعراب والتقديرات نعلم يقيناً قدرة النص القرآني الجمالية على التحول الدلالي والامتزاج بالمعاني وتأصيل دلالاتها وتنوع معانيها وما تقدمه إلى المتلقي.

---

1 سورة الرحمن، الآية: 6.

2 ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح: ناصف النجار وعبد الفتاح شلبي، ج302/2.

3 ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج380/2.

وقد تنوعت أنماط الجمل وسياقاتها في القرآن الكريم، وكان أكثرها دوراناً في النص المؤلفة من الفعل والفاعل والمفعول به، كالآية ﴿أَهلكنَاهَا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وترى الأرضَ هامِدَةً﴾[2] والآية: ﴿لا يأكلونَ الطَّعامَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وذُوقُوا عَذابَ الحَريقِ﴾[4] وغيرها من الآيات والنصوص المنتشرة في القرآن الكريم، وبين غيرها من الأنماط الفعلية للجمل الأخرى كالمؤلفة من الفعل ونائب الفاعل كقوله تعالى: ﴿فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً﴾[5] والآية: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[6] وغيرها من الآيات الكثيرة والآية: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا﴾[7] والذي يعنينا هنا أن الجملة الفعلية بتنوع جمالي عبر السياق والتراكيب والصيغة،

---

1 سورة الأنبياء، الآية: 6.

2 الحج، الآية: 5.

3 سورة الأنبياء، الآية: 8.

4 سورة الحج، الآية: 22.

5 الأنبياء، الآية: 47.

6 سورة الزلزلة، الآية: 1.

7 سورة النساء، الآية: 28.

وتتمظهر الجمالية بشكل واضح عندما ندرك أن كل جملة من الجمل الفعلية في القرآن الكريم لا تنتهي حتى تكمل عناصرها الدالة على جميع جوانبها من الناحية الجمالية عند التفسير.

ولا بأس أن نقف عند الجملة التي لا محل لها من الإعراب كجملة جواب الشرط غير الجازم في الآية: ﴿فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها﴾[1] وهي جملة (نودي) فالجمال النحوي في إعراب الجمل يظهر لكثير من علماء النحو كأبي حيان التوحيدي بقدرته على ذكر الخير ومراتب السعادة بفضل الله وعنايته كما في الآية. يقول في هذه المعاني: "إن العقل لا يستحسن ولا يستقبح شيئاً من الأشياء إلا بقرائن وشرائط، وهكذا الحال في الأشياء التي تعرف بالخير والشر. إن القصاص إذا وقع عليه هذا الاسم لما فيه من حياة الناس، وإذا وقع عليه اسم القتل بغير هذا الاعتبار صار قبيحاً لما فيه من تلف الحيوان". [2]

---

1 سورة النمل، الآية: 8.

2 أبو حيان التوحيدي، الهوامل والشوامل، 43.

ولعل جماليات النحو والتفسير تظهر في الجملة القولية، أو ما يطلق عليه (مقول القول) وهي من أعظم الآيات الجوابية التي كثر ورودها في السياق القرآني الجليل، وغلب عليها السياق التفصيلي الجمالي، حتى كانت كل سورة من الأجوبة القولية (الحمد لله....) كانت لوحة جمالية جوابية عظيمة الصنع، بديعة التركيب، تنمّ عن حال قائلها وتناسب كل العصور والأزمنة، ولننظر في قوله تعالى: ﴿وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فعظيم السياق القرآني وجمالية التفسير النحوي تتراءى من خلال القدرة الإعجازية للقرآن؛ إذ تجد في كل آية من آياته، بل كل كلمة من الكلمات السياقية القرآنية "من عجيب النظم، وبديع الرصف، والتي لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارناها بأخواتها، وضامتها ذواتها مما تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها، ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى

---

1 سورة النمل، الآية: 15.

الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلاً، ببديع التأليف، وبليغ التنزيل، والقول من أعظم الدلالات. [1]

ولا يمكن أن نغفل عن الحسن الجمالي القائم على التعدد في الجانب الإعرابي كتعدد الجملة الخبرية في صورة من أعظم صور الحسن والجمال والبديع والإعجاز في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ، عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾ [2] فقد أعرب الدعاس الجمل التي بعد المبتدأ الرحمن خبراً على الترتيب. قال: "الرحمن مبتدأ (علم القرآن) ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ (خلق الإنسان) ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر ثان (علمه البيان) ماض ومفعوله والفاعل مستتر والبيان مفعوله الثاني والجملة خبر ثالث". [3] فتعدد الأخبار هو تعدد جمالي لسياق إلهي معجز

---

1 انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، 190.

2 سورة الرحمن، الآيات: 1– 4.

3 الدعاس وآخرون، إعراب القرآن الكريم، 290/3.

بل من سمات البلاغة والفصاحة ما أوقف العقول وسلب القلوب وجبنت فصاحة الكلمات أمام هذا التنزيل الجليل.

لقد أدركنا من خلال فهم السياق القرآني وتفسير الجمل نحوياً أن الكلام الإلهي لم يكن ذلك الكلام الذي يأتي جزافاً– حاشا– بل إنه الكلام الإلهي الذي جاء على درجة من أعلى وأرقى درجات الكمال والجمال الأسلوبي، فنحن نجد مفاتيح السياق (التفسير) من خلال النحو، وعبر أدواته وطرائقه وأساليبه، ونعلم حقيقة العلم أن النحو يستند في التفسير الجمالي إلى أعظم صور المهمات الجمالية اللغوية، فلقد اشتمل القرآن الكريم على المرتبة العليا من حسن الكلام؛ إذ إن "حسن البيان في الكلام على مراتب: فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتي يحسن في السمع ويسهل في اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه في المرتبة". [1]

---

1 الرماني، والخطابي، والجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، 107.

والظاهرة الجمالية بين النحو والتفسير تكون أكثر وضوحاً من خلال الاهتمام الكبير في السياق الإلهي على الإتيان بالفصيح والاختيار للأفصح، والبليغ والأبلغ، فالجمل القرآنية في الآية الكريمة ﴿قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى﴾[1] لم تكن لتأتي كما ذكر السيوطي فيها على ذلك القدر الجمالي بالدلائل النحوي لو كانت ألفاظها غير تلك الألفاظ التي تكونت منها، فهي فصاحة تميز بها السياق القرآني وأظهرها علم النحو العربي، وفيها من السحر والبيان والفصاحة مالم يجر على لغة العجم. قال: "اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض وكذلك كل واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ولا بد من استحضار معاني الجمل أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها واستحضار هذا متعذر على البشر

1 سورة طه، الآية: 63.

في أكثر الأحوال وذلك عتيد حاصل في علم الله تعالى فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه". [1]

ولعلنا نختم ببعض المفاهيم النقدية الجمالية، والتي تبين دور اللغة (النحو) في تشكيل المعاني القرآنية وبيان ودور الكلام وسياقه والكلمات وترتيبها والسياق وفصاحته والجملة ودلالاتها، يقول أبو هلال العسكري مدللاً على قيمة اللفظ وبعده الجمالي في سياق الإعراب الذي ينبثق عن المباني والجمل القرآنية: "وليس الشأن في إيراد المعاني؛ لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف. وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت". [2]

---

1 السيوطي، الإتقان، 25/4.

2 أبو هلال العسكري، الصناعتين، 55– 57.

والجمالية النحوية تتركز على الناحية المعنوية والقصدية التي تظهر للمعاني وتفسر الآيات من خلالها، فالنحو هو الجمال بذاته عندما يخدم النص القرآني، وعندما تأتيه معانيه لخدمة السياق القرآني، فالأصل في المعاني أن تنبثق عن المباني، وأن يقوم النحو بتلك المهمة الوصلية بينهما، يشير ابن الأثير إلى فضل المعنى ودور النحو في تفسير المعنى بقوله: "اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأشرف قدراً في نفوسها؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها، وبالغوا في تحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في النفس، وأذهب بها في الدلالة على القصد، ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعاً لذ لسامعه فحفظه، وإذا لم يكن مسجوعاً لم يأنس به أنسه في حالة السجع، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها،

ورققوا حواشيها، وصقلوا أطرافها، فلا تظن أن العناية إذا ذاك إنما هي بألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني". [1]

وخلاصة القول: إن حقيقة العلاقة الجمالية في هذا القسم ظهرت في الجملة القرآنية من خلال الفصاحة القرآنية العالية، والبلاغة السامية، والمفردة البليغة في القول والمعنى، الجليلة في اللفظ والمبنى، الجميلة في القدر والسمة، الأسلوبية المعجزة الموغلة. وهذه الجمالية لم تكن لتظهر إلى العين وتقع في القلب لولا أن جاء النحو لتفسير معانيها وبيان دقائقها وددرها ونفائسها عبر طرائقه ومن خلال أساليبه؛ فالنحو هو الخادم الصغير للنص القرآني الجليل في جميع وصنوف تفسيراته وتوضيحاته لدلالات معانيه وجمال عباراته وصوره وتأويل سياقاته.

۞ والحمد لله أولاً وآخراً ۞

---

1 ابن الأثير، المثل السائر، 340/1.

مراجع الكتاب

1- إبراهيم مصطفى- آخرون، المعجم الوسيط دار العودة، بيروت، د.ت.

2- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، عام: 1420هـ.

3- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، د. ت.

4- ابن جني، الخصائص، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

5- ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح: ناصف النجار وعبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، عام: 1969م.

6- ابن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية بالقاهرة.

7- ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، تح: محمد الخولي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

8- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، تح: عبد السلام محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.

9- ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

10- أبو بكر الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ط1، المكتبة العصرية، عام: 2003م.

11- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ط5، دار المعارف، مصر، عام: 1997م.

12- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: محمد صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.

13- أبو حيان التوحيدي، الهوامل والشوامل، تح: أحمد أمين وأحمد صقر ط ١، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة.

14- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، عام: 1419هـ.

15- أحمد الحسون، في تاريخ الفكر الجمالي، بحث، 2012م.

16- أحمد أمين، فيض الخاطر، مطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، علم: 1940م.

17- أحمد بين الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، دار التب العلمية، بيروت، د.ت.

18- أحمد حاطوم، كتاب الإعراب، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، عام: 1992م.

19- أحمد عبيد الدعاس- أحمد محمد حميدان - إسماعيل محمود القاسم، إعراب القرآن الكريم، ط1، دار المنير ودار الفارابي، دمشق، عام: 1425هـ.

20- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، مصر، عام: 1957م.

21- جادامر، هانزجيورج، تجلي الجميل، ترجمة: سعيد توفيق، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، عام: 1997م.

22- جاسم المالكي، الفاعل وأنواعه في آيات سورة البقرة، مجلة آداب جامعة البصرة، العدد: 65، لسنة 2103م.

23- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام: 1974م.

24- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، عام: 1998م.

25- جلال الدين السيوطي، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، نشر: جامعة أم القرى، السعودية، عام: 2005م.

26- جيروم، ستولينتر، النقد الفني دراسة جمالية، ترجمة: فؤاد زكريا، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، مصر، عام: 2007م.

27- راضي نواصرة، القراءات القرآنية وموقف النحو والاستشراف منها، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، ومكتبة المتنبي، السعودية، عام: 2003م. 90-91.

28- الرماني، والخطابي، والجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط3، دار المعارف، مصر.

29- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.

30- سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، عام: 1988م.

31- السيد عبد الغفار، قضايا في الأسلوب القرآني، دار المعرفة الجامعية، مصر، عام: 2010م.

32- شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 267، عام: 2001م.

33- عابد خزندار، الإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام: 1988م.

34- عبد الحليم قابة، القراءات القرآنية تاريخها ثبوتها حجيتها وأحكامها، دار الغرب الإسلامي، بيروت، عام: 1999م.

35- عبد الرحمن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط1، دار القلم، دمشق، عام: 1996م.

36- عبد الرحمن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل تأملات، ط1، دار القلم، دمشق، عام: 1980م.

37- عبد العظيم صغيري، علم الجمال رؤية في التأسيس القرآني، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، قطر، عام: 1433هـ.

38- عبد الفتاح حبيب، النحو العربي بين الصناعة والمعنى، ط1، عام: 1999م.

39- عبد القاهر، الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود شاكر.

40- عبد الواحد المقرئ، أخبار النحويين، تح: مجدي السيد، ط1، دار الصحابة للتراث، طنطا، عام: 1989م.

41- عفيف دمشقية، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، ط1، معهد الإنماء العربي، طرابلس، ليبيا، عام1978م.

42- العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تح: محمد علي البجاوي، مطبعة البابي الحلبي، د.ت.

43- الفراء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، ط1، دار المصرية، د.ت.

44- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م.

45- محمد الصباغ، لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت،1990.

46- محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، عام: 1996م.

47- محمد حماسة، بناء الجملة العربية، دار غريب، القاهرة، عام: 2003م.

48- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، خرج أحاديثه ووضع حواشيه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1409هـ.

49- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، عام: 1994م.

50- محمود محمد علي، النحو العربي وعلاقته بالمنطق، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية، عام: 2016م.

51- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، لبنان، د. ت.

52- مكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، تح. حاتم صالح الضامن، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، عام: 1984م.

53- منصور صالح الوليدي، الخلاف النحوي في المنصوبات، ط1، دار جدارا للكتاب العالمي، عمان، عام: 2006م.

54- نبيل آل إسماعيل، علم القراءات نشأته أطواره أثره في العلوم الشرعية، مكتبة التوبة، الرياض: عام: 2000م.

55- الهمداني، الفريد في إعراب القرآن المجيد، تح: فهمي حسن النمو وفؤاد علي مخيمر، دار الثقافة، قطر. د.ت.

المحتوى



ريمار للنشر



